أطراف
الظلام

اسم الكتاب: أطراف الظلام
اسم المؤلف: عبد الباقي يوسف
تنسيق داخلي: أسماء أبو المجد
رقم الإيـــــداع: 2025/7285
الترقيم الدولي: 2-58-6732-977-978
اسم الناشـــــر: رنة للنشر والتوزيع والطباعة

+201022157156
rannapublishing@gmail.com
رنة للنشر والتوزيع والطباعة

مؤسسة رنة
للنشر والتوزيع
والطباعـــة
جمهورية مصر العربية

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ©
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

أطراف الظلام

رواية

عبد الباقي يوسف

مؤسسة رنا
للنشر والتوزيع
والطباعة

الفصل الأول

في اليوم الأوَّل مِن عام 2025، وبعد سهرةٍ امتدَّت إلى الصباح برفقة ابنتي (حنين) احتفالاً بالسنة الجديدة، خطر لي للمرة الأولى منذ ثمانٍ وعشرين سنة مرت على وجودي في (السويد) أن أزور سورية، وبعد قليلٍ رأيتني أتَّخذ الفكرة على محمل الجدّ وأُقرّر السفر، بل نهضتُ على الفَور واتَّجهتُ إلى مكتبٍ للطيران وحجزتُ تذكرتَي سفر إلى دمشق، واحدة لي والأُخرى لابنَتي، وفي اليوم الخامس من الشهر، حيث كان موعد إقلاع طائرتنا، انطلقنا إلى المطار، وصعدنا الطائرة التي سوف تقلنا إلى دمشق.

لم أكن أصدّق ما جرى من تحوّلاتٍ سريعة حصلت في سورية، وأعتقد بأن هذه السرعة تركت أثرها عليّ أيضاً، كي أسارع في تنفيذ فكرة السفر التي خطرت لي بعد كل تلك السنوات الطويلة من الغربة.

جلستُ على مقعدي، وجلستْ حنين على مقعدها جواري، وعندما أقلعت الطائرة، قفزت صورة الدكتور (عصمت) إلى ذاكرتي، ذاك الشخص الذي أحدث نقلةً انعطافيةً كبرى في حياتي، وكان خلف فكرة خروجي من دمشق إلى السويد. أغمضتُ عينَي وتذكَّرتُ اليوم الأوَّل الذي التقيته فيه. كنتُ في معرض الكِتاب منهمكاً في انتقاء بعض الكتب، عندما أحسستُ بأصابع تنقر على كتفي من الخلف. التفتُّ وبينَ يدَيّ كِتابٌ كنتُ أتصفَّحه، فوقع نظري على وجهٍ دائريٍّ أبلج، حليق الذقن، يميل إلى الاحمرار، وحاجبَين كثَّين مبتعدَين عَن بعضهما، وأنفٍ كبير الحجم، وشعرٍ أبيض ناعم يكلّل الرأس، على قامةٍ طويلة متناسقة الأعضاء، عليها بدلة رسميّة حالِكة السواد على قميصٍ أبيض وربطة عنق حمراء غامقة، وحذاء خمري يلمع.

قال وهو ينظر إليّ بعمق: "سعيدٌ برؤيتك يا أستاذ (توفيق)، هذه هي المرة الثانية التي أراكَ فيها..". هززتُ رأسي، فأردف يقول: "منذ نحو ستّة أشهر رأيتك عندما

شاركتَ في أمسية قصصية في المركز الثقافي في (العدوي)[1] يومها قرأتَ قصّتَين".

قلت وأنا أنظر إليه: "صحيح".

قال: "عندما رأيتكَ الآن، خطر لي أن أستعين بك في اختيار بعض الكتب التي تراها هامّة كي أقتنيها لمكتبتي المنزلية، إن كان لديك وقت".

قلت: "ما هي نوعية الكتب التي تقرأها؟".

قال: "على الأغلب الروايات والمجموعات القصصية، وهذا ما شجَّعني كي أجيء إليك عندما لمحتكَ صدفةً".

أعدتُ الكِتاب الذي كان بيدَي إلى موضعه، وقلت: "حاضر.. تفضَّل..".

تجوَّلنا في أروقة المعرض بين الأجنحة، نخرج مِن جناحٍ، ندخل إلى آخر وأنا أدقّق في عناوين الكتب، وأختار التي أراها مهمّة. أمضينا ساعتَين نتجوَّل بين الأجنحة ورفوف الكتب، انتقيتُ فيهما خمسين عنواناً،

[1] من أحياء دمشق القديمة

ابتاع منها النصف لأن النصف الآخر كان موجوداً في مكتبته كما قال. وهذا ما جعلني أشكّل تصوّراً عَن شخصيّته من خلال نوعية الكتب التي يقرأها، وما عزّز هذا التصوّر لديّ أن العناوين التي لم تكن موجودة لديه كانت تُدهشه ويبدو كما لو أنّه يكتشف كنوزاً ثمينة وهو يحمل الكِتاب، يقلبه بين يدَيه، يتصفَّحه، ينظر إلى أناقة الطباعة، إلى الحجم. يسألني: "هل قرأت هذه الرواية؟".

فأقول: "نعم".

يقول: "لا أحسد أحداً على شيء قط إلّا إذا كان قد قرأ كتباً نفيسة لم أقرأها".

قلت له: "يبدو بأنك قارئ نهم".

قال: "للأسف اكتشفتُ أهمية القراءة في وقتٍ متأخّر، لذلك أحاول أن أعوّض ما فاتني وأنا في الستين من عمري".

قلت: "تبدو أصغر من عمرك بكثير، ظننتكَ أصغر من ذلك بقرابة عشر سنوات، لكن قبل ذلك ألم تكن تقرأ؟".

قال: "لم أجد الوقت -أو بالأصح كما اكتشفتُ الآن- كنتُ أعتقد بأنّني لم أجد الوقت. كانت هناك بعض القراءات القليلة، ولا أعتبرها قراءات حقيقيّة لأنّها لم تكن متأنّية، كنتُ دوماً أُخطّط بأنّني عندما أتقاعد سوف أتفرَّغ للقراءة".

قلت دون أن أعرف ما هو عمله: "هل هذا يعني بأنَّكَ تقاعدتَ؟".

ابتسم وقال: "كل زملائي الأطبّاء استغربوا لهذا القرار الذي اتَّخذته، حتى النقابة استغربَت عندما تقدمتُ لها بطلبٍ كي أحصل على الراتب التقاعدي لأنّني طبيبٌ مشتركٌ في صندوق التقاعد منذ سنوات طويلة".

وضعنا الكتب في أربعة أكياس نايلون أنيقة خاصّة بالمعرض، حمل كل واحدٍ منّا كيسَين ومضينا إلى الخارج نمشي بخطواتٍ وئيدةٍ ونتحدَّث حتى وصلنا إلى سيارته البيضاء نوع (تويوتا كورولا)، التي كانت واقفة في كراج المعرض. وضعنا الأكياس على المقعد الخلفي للسيارة، وودَّعته، لكنّه دعاني للصعود كي يوصلني إلى البيت،

فاعتذرتُ وقلت: "المواصلات كثيرة وسأذهب بسيّارة أُجرة".

قال: "اركب يا رجل، لن أتحرَّك من هُنا قبل أن تركب".

عندما وجدته مصراً، ركبتُ في المقعد الأمامي بجانبه، فأدار محرّك السيّارة، ومضى قائلاً: "أين تسكن؟".

قلت: "في (باب توما)[2]".

قال: "تبدو من لهجتك بأنك لستَ من سكّان دمشق".

قلت: "نعم، أنا من محافظة (الحسكة)[3] جئتُ إلى دمشق منذ سنة".

ناولني سيجارة (بال مال)، وأشعل واحدة لنفسه، وبعد لحظاتٍ قال وهو ينفث الدخان وينظر أمامه: "دمشق جميلة، لا يضجر المرء فيها".

---

[2] حي دمشقي قديم سُمي بهذا الاسم نسبة إلى القديس توما، بُني في عهد الرومان.

[3] مدينة سورية تقع في الشمال الشرقي في سورية.

أشعلتُ سيجارتي وقلت والسيجارة في فمي: "أيضاً هي مدينة مُنفتحة، وفيها وسائل إعلام عديدة، الحسكة مدينة زراعية وفيها بعض حقول النفط".

قال: "على كل حال، مدننا السورية تتكامل مع بعضها بعضاً، ولكل مدينة جماليّاتها ومزاياها".

عند وصولنا إلى الرصيف المُحاذي لباب بيتي، قال: "هل سترجع مرة أُخرى إلى المعرض؟".

قلت: "بعد يومَين".

كَتَبَ رقم هاتفي على دفترٍ صغير وقال: "إن كان لديك مجال، سأتواصل معك لنذهب معاً وتنتقي لي بعض الكتب الأخرى".

قلت: "الحقيقة أنا أيضاً أستمتع عندما أنتقي الكُتب المُحبّبة إلى قلبي، والتي لي مع قراءتها ذكريات جميلة".

دخلتُ البيت وأنا أقول في نفسي: "الذي يسافر يرى، والذي لا يُسافر لا يرى، وفقط عندما يُسافِر يكتشف كم أنّه كان أعمى".

فكَّرتُ بهذا الشخص النادر الذي التقيته، استرجعتُ ما قاله لي، تخيَّلتُ كيف أنَّه تركَ كل علاقاته في المدينة، باع بيته وعيادته، وراح يعيش في مزرعةٍ صغيرة على تخوم المدينة بعيداً عَن الناس كي يعيش مع الكتب، فقط مع الكتب.

علقت في ذاكرتي كلماته: "بيَّنَت لي القراءة بأنّني خلال ستين سنة مضت كنتُ أكثر الناس جهلاً في العالَم، كنتُ جاهِلاً حتى عَن نفسي وعن أكثر الناس قُرباً منّي".

هذا الكلام جعلني أُعيد حِساباتي لنفسي: "تُرى ما الذي يؤكّد لي بأنّني لستُ مُغفَّلاً على خُطى ذاك الرجل، وأنّني ذات يومٍ قد أُصعَق باكتشاف هذه الحقيقة، وأن كل ما فعلته كان خطأ في خطأ، ولم يسبق لي أن فعلتُ صواباً واحِداً في حياتي كما تبيَّن لذاك الرجل؟".

بدا الرجل لغزاً أمامي بكل ما فيه، لم يُشعرني للحظة بأنّه كائنٌ شرّير، بل أنّه كائنٌ وَدود، وقد عرف في وقتٍ متأخّر قيمة القراءة، باتَ لدي فضولٌ كي أتعرَّف عليه أكثر. الدخول إلى عالم الشخص بالنسبة لي مهم جداً قبل

أن تتوثَّق علاقتي بِه، هناكَ أشخاص تشعر بأنك تستطيع أن تتوغَّل في أعماقهم، وأشخاص تشعر بأن الغموض يكتنفهم ولن يكون بوسعك أن تلج تلك الأعماق، أشخاصٌ يكونون كالأوبئة الخبيثة، إن لصقوا بك، لن تستطيع الفكاك منهم بسهولة.

كانت أمّي تقول لي: "كن بحالك يا بُني، الذي يكون بحاله، لا شرّ يقربه، الشر دوماً يأتي من الناس". وهذا ما ذكّرني بمقولة سارتر: (الآخرون هم الجحيم). رغم أن أمّي أمّية ولم تسمع باسم سارتر.

كانت تستخلص مفهومها للحياة من الأحداث التي تحصل معها، أو مع الآخرين، وكانت لديها ذاكرة عجيبة لرواية قصص وحكايات شفاهية تقول بأنّها حفظتها عَن أمّها وعن نساءٍ تعرَّفتْ بهن من خلال الجيرة، أو صلات القُربى. كان بمقدورها أن تسترجع قصةً رُويت لها مرةً واحدةً منذ ما يزيد عن نصف قرنٍ من الزمن، تسترجعها كما رُويت لها تماماً سواء أكانت قصيرة، أم طويلة.

عندما اتَّخذتُ القرار النهائي بالسفر إلى دمشق، فاضت عيناها بالدموع، قالت وهي تودّعني: "تذكَّر دوماً يا ولدي بأن الأصدقاء قلَّة، اختر قلَّةً من تلك القلَّة".

***

كنتُ جالِساً في البيت أقرأ الملحق الثقافي الأسبوعي، لجريدةٍ محلّية، حينما تعالى رنين الهاتف، رفعتُ السماعة، فتناهت نبرات ذاك الرجل: "هل أنتَ جاهز كي نذهب إلى المعرض؟".

أحسستُ بنشوةٍ وقلت: "تفضل دكتور، أنا جاهز".

- "نصف ساعة وسأكون عندك". قالها سَريعاً وأغلق الخط.

خمَّنتُ بأنّه سينطلق من المزرعة تواً، وهو الوقت الذي يستغرق للوصول إلى بيتي.

جلستُ نحو ربع ساعةٍ أسترجع في ذاكرتي بعض الكتب التي يُمكنني أن أختارها له، ثم نهضتُ، حلقتُ ذقني، ارتديتُ ثيابي برَويَّةٍ وخرجتُ. بعد لحظاتٍ من

وقوفي أمام الباب، لاحت لي سيارته البيضاء الأنيقة قادمة بتمهّل مِن ناصية الشارع، ومع دنوها أخذ رأسه يظهر من خلف المقود، حتى توقَّفَ بمحاذاة الرصيف. فتحتُ الباب وجلستُ إلى جانبه، وضعتُ كفّي في كفّه مُسلِّماً، قال وهو يبتسم: "أرجو ألّا أكون قد أشغلتك".

قلت: "لا.. كان ببالي أن أعود إلى زيارة المعرض، هذه أوّل مرة يُقام معرض للكِتاب في دمشق، شيءٌ كالحلم وأنا أرى دور النشر أتت من مختلف الدول لتعرض إصداراتها".

قال: "مصادفة قرأتُ الخبر في إحدى الجرائد، فقلت بأنها مناسبة جيّدة كي أقتني بعض الكتب".

قلت: "في السنة الماضية بعد تدشين (المكتبة الوطنية)[4]، كانت فكرة التأسيس لهذا المعرض ليُقام فيه".

[4] مكتبة وطنية في دمشق تم تدشينها سنة 1984

قال: "معرضٌ خاصٌّ بالكِتاب، شيءٌ رائع، وأنا أتجوَّل فيه ينشرح صدري كأنّني في عرسٍ للكِتاب، نحن في دمشق لم نكن نعرف غير (معرض دمشق الدولي)، لكنّه معرض للصناعات بالدرجة الأولى، تُشارك فيه شركات عربية وعالميّة لتعرض منتوجاتها". ثم أردف يقول: "وهو معرض مهمٌّ، لي ذكريات جميلة معه، يدعون فيه كبار الفنانين لإقامة حفلات فنّية، وأذكر بأنّني سنة 1958 حضرتُ فيه حفلة (أم كلثوم) غنَّت فيها أغنية (دليلي احتار)، كان ذلك يوم الثامن من شهر آب. وكذلك سنة 1976 حضرت حفلة (عبد الحليم) غنّى فيها: (توبة، أهواك، في يوم من الأيام، أول مرة تحب يا قلبي)، وكان ذلك يوم السابع من شهر آب. كانوا يدعون مشاهير الفن حتى يستقطبوا الزوّار إلى المعرض، وحتى تمتدّ شهرة المعرض إلى مُختلف البلدان".

قلت: "ها هي دور النشر تأتي إلينا أسوةً بالشركات، منظر الناس وهم يقبلون بكل هذه الأفواج الهائلة لشراء الكتب، يشرح الصدر".

قال: "كيف تمضي وقتكَ هُنا؟".

قلت: "مضت سنة على وجودي في دمشق، كانت البدايات قاسية حتى استطعتُ أن أنسجم مع إيقاع الحياة الجديدة، من مدينة نائية هادئة، إلى صخب وزخَم العاصمة.

انتسبتُ إلى اتحاد الكُتّاب العرب، وأقوم بين فترة وأخرى بزيارات لمبنى الإذاعة والتلفزيون، لنقابة الفنانين. تعرَّفتُ على بعض الأدباء والفنانين والإعلاميين، أنشر بعض القصص والمقالات في بعض الصحف والمجلات. أحياناً أشارك في بعض الأمسيات القصصية في المراكز الثقافية، الحِراك الثقافي هُنا حيوي جداً، اعتدتُ عليه مع الوقت".

نظر إليّ وقال: "هل تقيم وحيداً أم أنك متزوّج؟".

قلت: "ما أزال عازباً، ويبدو أن انهماكي في العمل الأدبي أنساني مسألة الزواج، وأنساني بأنّني أصبحتُ في السادسة والعشرين من عمري".

قال: "ما يزال لديك متَّسع من الوقت للزواج، إبداعك في هذه المرحلة في ذروته، عش حياتك الآن، واستمتع بِها، عشها بطولِها وعرضها. الكاتب الذي تكون تجربته الحياتية فقيرة، لا يكون أدبه غنياً. كُل ما تراه وتعيشه الآن، سيتراكم في ذاكرتك، يتحوّل مع السنوات القادمة إلى أعمالٍ إبداعية، ذاكرتك سوف تبقى مُحافِظة على كل هذه التفاصيل. ليس هناك شيء لا يلزم الكاتب يا عزيزي، خاصّةً إذا كان روائياً أو قاصّاً، لكن كل تفصيلٍ سوف يأتي في أوانه".

صمتَ قليلاً وهو ينظر أمامه ويقود سيارته على مهل، ثم أردف يقول: "خيراً فعلت أنّك انتقلتَ إلى دمشق، نحن الآن في سنة 1985 والحركة الثقافية هُنا مُزدهِرة بكونِها العاصمة، يمكنك أن تستفيد منها كثيراً من خلال احتكاكك المُباشر مع المنابر الأدبية ولقاءاتك مع كبار الأدباء. لكن كن على حذرٍ شديد، بعد حوادث (الإخوان المسلمين)، يمكن للشخص أن يذهب في غياهب السجون لمجرَّد كلمة قالها، عيون الأمن منتشرة في كل

ركن.. للجدران آذان، وللفنجان الذي تشرب به القهوة آذان، يوجد تشديدٌ رهيب لا مثيل له في أيّ بقعةٍ أُخرى مِن العالَم".

ثم التفتَ ينظر إليّ وقال مبتسماً: "كونك كاتب، يمكنك أن تقوم ببعض المُغامرات العاطفية، لكن المعيشة هُنا باهظة جدّاً، هل لديك عمل إلى جانب الكتابة؟".

قلت: "لا، أنا متفرّغ للكتابة".

قال: "بيتك بالأجرة، أم اشتريته؟".

قلت: "شقّة مفروشة في الطابق الأرضي استأجرتها شهرياً بألف ليرة عندما أتيتُ إلى دمشق".

قال: الأجرة غالية جداً كيف تؤمّنها؟".

قلت: "تعاقدتْ صحيفة خليجية معي على كتابة مقالة أسبوعية في القسم الثقافي، ترسل لي كل شهر مائتي دولار عن استكتاب المقالات الأربع".

قال: "ممتاز، أعتقد أن الدولار هذه الأيام يُساوي خمس عشرة ليرة".

قلت: "نعم، يرسلون المبلغ في شيكٍ عن طريق صندوق البريد برسالة مضمونة، وأصرفه عند الصاغة".

دخلنا المعرض الذي كان مكتظّاً بأفواج الناس بمختلف أعمارهم وشرائحهم، المكان الذي له سحره بالنسبة لي، أعيش فيه طقوساً خاصّةً بيني وبين نفسي، تسري نشوةٌ في أوصالي وأنا أنظر إليهم يبتاعون الكتب، يحملونها بأيديهم ويخرجون.

دخلنا إلى الأجنحة ونحن ندقق بشكل أكثر في العناوين، نسأل أصحاب دور النشر عَن بعض عناوين الكتب. استطعنا أن نختار مجموعة جديدة تجاوزت عشرين كتاباً، ثم اتَّجهنا إلى (بوفيه) المعرض للاستراحة، قال ونحن نجلس: "تعبنا من الوقوف في انتقاء الكتب، ومن المشي البطيء في الانتقال بين الأجنحة". جاء النادل، فطلب كأسين من الشاي مع قطعتَي (كيك). استطرد يقول وقد مدّ سيجارةً إليَّ وعلَّق واحدةً في زاوية

فمه: "المشي الطبيعي لا يتعبني حتى لو مشيتُ مسافة طويلة، أحياناً أمشي من المزرعة إلى الطريق العام وأعود نشيطاً وقد قطعت نحو عشرة كيلو مترات".

قلت: "صحيح يا دكتور، نال منّا الإرهاق ونحن لم نمشِ أكثر من كيلو مترٍ واحدٍ بين الأجنحة".

قال: "حصيلة اليوم كانت جيدة، وسنكمل بعد الاستراحة إذا كان وقتك يسمح".

قلت: "لا مشكلة، بصراحة يا دكتور أنا مستمتع بالوقت معك وبين هذه الكتب التي أحبّها".

مدّ يده إلى الكيس، سحب كتاباً وقال: "هذا الكاتب لم أسمع به من قبل، ولم أقرأ له شيئاً".

نظرتُ إلى الكِتاب وقلت: "(صادق هدايت)، كاتب إيراني، روايته هذه (البومة العمياء) من الضروري أن تقرأها. سوف يُذكّرك بفرانز كافكا الذي أخذنا له (المُحاكمة)، و(في مستوطنة العقوبات)، و(المسخ)، وتقصدّتُ أن أنتقي لك رسائله إلى حبيبته (ميلينا) حتى

تدخل إلى عالمه أكثر، وبناءً على ذلك تُعيد قراءة رواياته وقصصه القصيرة".

قال: "أفهم من ذلك بأنك تُعيد قراءة الكتب التي قرأتها".

قلت: "المتعة الحقيقية تكمن في القراءة الثانية، لأنّك تعرف ماذا ستقرأ، تخيَّل بأنّك تدخل إلى مدينةٍ لأوّل مرّة، سوف تبهرك بجمالِها وأنتَ تجوب شوارعها وحدائقها وأماكنها الترفيهية، وتنام في فنادقها للمرة الأولى. لكن بعد فترةٍ عندما تعود إلى تلك المدينة، سيكون كل شيء بالنسبة لك مُختلِفاً، ستعرف أينَ تمشي، أين تأكل، أين تتنزَّه، أين تنام، وعند ذاك ستكتشفها بشكل جيّد. هكذا هي الرواية، عندما تُعيد قراءتها، ستفصح لك عَن مكنوناتها أكثر وأنتَ تقرأ بمعرفة سابقة من خلال قراءتك الأولى. وكما أنّ القراءة الأولى عرّفتكَ بأشياء، ستعرّفك القراءة الثانية بأشياء أُخرى، وهكذا كلّما تعيد القراءة، تكتشف مالم تكتشفه في قراءةٍ سابقة، خاصّةً مع أدباءٍ يكتبون بعمق مثل

(فرانز كافكا)، فيمكن لك أن تقرأ أعماله عشرين مرة وكل مرة تحمل لك متعة جديدة لم تظفر بِها في المرة السابقة، تحمل لك معلومات جديدة لم تظفر بِها في القراءة السابِقة".

كان ينظر إليّ وهو يستمع، فقلت: "سوف تستمتع بقراءة (البومة العمياء)، وبعدها اقرأ قصصه القصيرة، هو أيضاً يشبه كافكا بنَفَسه القصير في الكتابة، رواياته قصيرة يكتبها بلغةٍ مُكثَّفة. عندما تقرأ لكاتب، يُستحسَن أن تستمرّ في قراءة كتبه التي تُتاح لك، لأن كِتاباً واحِداً لا يُقدّمه لك، إلّا إذا كان قد اكتفى بكتابة رواية واحدة، وهذه علامات فارقة في الإبداع، مثل رواية (دكتور زيفاكو) التي لم يكتب الكاتب غيرها، وحصل بِها على جائزة نوبل للآداب".

قال: "كتب رواية واحدة وحصل بها على نوبل؟!".

قلت: "فقط رواية واحدة كتبها في حياته".

أتى النادل، وضع الشاي والكيك أمامنا وانصرف، رشفتُ رشفةً من كأسي وقلت: "مع إعادة القراءة

ستكتشف قوّة الملاحظة التي يتمتَّع بها (صادق هدايت)، إلى جانب حساسيته المُفرطة. عندما قرأته، بقي ملتصقاً بي، كان شبحه يُلاحقني من مكانٍ إلى آخر، تحوَّل إلى هاجسٍ يشغلني، أردتُ أن أبعده عَن نفسي ولم أستطع، كنتُ دوماً أتخيَّل ملامحه، أتذكَّر عباراته".

نظر إلى الرواية، فتحها وقال: "لن أنام الليلة قبل أن أنجز قراءتها، إنها قصيرة، أقل من مائة صفحة".

قلت: "لم يعش طويلاً، عاش حياةً قصيرة مليئة بالتجارب والإخفاقات، ثم سافر إلى فرنسا وانتحر في عمر 48 سنة. أشياء كثيرة تجمعه بفرانز كافكا الذي مات مبكراً عن 40 سنة".

- "هل كانا في زمنٍ واحد؟".
- "عندما مات كافكا، كان هدايت في نحو العشرين من عمره، وضعتُ صورتَيهما بجانب بعضهما في بيتي".
- "شوَّقتني إلى طقوس بيتك".
- "بيتي هو عبارة عَن فوضى، الكُتب هي أكثر ما فيه، أينما اتجهتَ سترى كتاباً على الأرض، في زاوية، على

رف، على حافة نافذة، على كرسي. ترى صوراً على الجدران لكُتّاب تعلَّمتُ منهم الكثير وغيَّروا لي مجرى حياتي. لي صديقة شاعرة، تزورني أحياناً وتحاول أن ترتّب البيت، فأضع لها حدوداً للترتيب لأنّني أستمتع بهذه الفوضى. يبدو لي بأن الترتيب في بعض الظروف الطارِئة يتحوّل إلى عبء، ومن الأفضل أن نتجنَّبه".

- "ألستَ مستقرّاً؟"

- "يسكنني شعورٌ بأنّني في مرحلةٍ مؤقَّتة وسأخرج منها، مرحلة أُكوِّن فيها نفسي، كل ما يشغلني في هذه المرحلة أن أتعرَّف إلى الحياة أكثر، أقرأ أكثر، أستمع إلى الموسيقى أكثر، أمشي في أسواق دمشق المزدحمة بأفواج الناس. الترتيب في هذه المرحلة يُقيّدني، الترتيب في أيّ شيء".

***

بعد الاستراحة تجوَّلنا مرَّةً أُخرى بين الأجنحة نكابد زحام الناس الذين يقبلون على المعرض في عرس الكِتاب الكبير هذا، العرس الذي يُقام لأوَّل مرَّةٍ في دمشق. كل

هؤلاء جاؤوا لشيء واحد فحسب، كل هؤلاء يجمعهم هاجسٌ واحد هو هاجس القراءة، لذلك يشعر المرء بأنّه على معرفة وثيقة بهم جميعاً، فهم عائلة واحدة ولا غريب بينهم، فقد جاؤوا جميعاً ليبتاعوا الكتب. خرجوا من بيوتهم ليجمعهم الكِتاب بين أروقة أضخم سوق يُقام للكِتاب في العاصِمة.

انتقيتُ مجموعة جديدة مِن الكُتب، وخرجنا، كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد الظهر. اتَّجه بالسيارة إلى منطقة (الربوة)[5]، وقف بجانب إحدى المقاصف المنتشرة على امتداد الطريق العام وقال بأنّنا سنتناول الغداء.

كان المكان خلّاباً وكانت غالبية المقاعد مكتظّة بالناس، عند جلوسنا قال: "هذا المكان هادئ جدّاً، بعيد

---

[5] ربوة دمشق، منطقة تقع في وادي نهر بردى شمال غرب دمشق، ومنها يتفرَّع نهر بردى إلى سبعة أفرع، تكثر فيها المطاعم والمقاهي، وتخرج العائلات إلى طبيعتها للتنزّه.

عن ضوضاء المدينة، وطعامه أيضاً لذيذ ومتنوّع، أحياناً أجلب ابنتي وحفيدي ونأتي لنتناول الغداء هُنا".

قلت: "ألا تأتي المدام معكما؟".

صمتَ قليلاً وقال: "المدام توفيت منذ أربع سنوات".

قلت: "أعتذر يا صديقي".

قال: "كانت تمثّل لي الجانب المضيء في الحياة، كان مجرّد النظر في وجهها يجعل صدري مُنشرِحاً، لا أذكر أنّها نادتني باسمي، كانت دوماً وأينما كنّا، تقول: "حبيبي". هُناك نساء نادِرات، لا يتكرّرنَ في حياة الرجل". استطرد يقول وهو ينظر إلى الماء الذي يسري قربنا: "بعد موتها، انطفأتْ شعلة الحيوية في داخلي، قرَّرتُ أن أنعزل عن الحياة، وأمضي ما تبقى من عمري في القراءة. اكتشفتُ في القراءة عالَماً جديداً لم يكن لي عهدٌ به من قبل، كم تمنَّيتُ فيما لو كانت زوجتي على قيد الحياة وتشاركتني الدخول إلى عالم القراءة البهي هذا، لكن ما يواسيني أن ابنتي مع هذا الواقع الجديد، بدأت تُشاركني القراءة، ونتحاوَر حول الكتب التي نقرأها، وهي شديدة الشبه

بأمّها، أحياناً عندما أنظر إليها، أرى وجه أمّها يتمثَّل في وجهها عندما كانت في مثل عمر ابنَتي الآن، بل أحياناً يلتبس عليّ الأمر وأناديها باسم أمّها.. المرأة سندٌ قويٌ في حياة الرجل لا يجوز الاستهانة به، وأحياناً تشكّل قوّةً حقيقيّة في مواجهة بعض الأزمات التي قد تعترض حياة الرجل".

جاء النادل حاملاً بيده قلماً ودفتراً صغيراً وقال: "أهلا وسهلاً..".

قال الدكتور موجِهاً كلامه لي: "ماذا تأكل؟".

قلت: "لا يوجد في بالي طعامٌ مُحدَّد.. اختر ما تشاء".

قال: "(الكَستليتة) هُنا لذيذة جدّاً.. ما رأيك؟".

قلت: "لا بأس، كما تُريد".

فطلَب طَبقَين من (الكَستَليتة) مع طَبَقَين من الرّز لوجبة الغَداء، وأن يسبقها بزُجاجَتَين مِن (البيرة) وطَبقٍ مِن الفستق الحَلَبي.

دوَّن النادل ما قيل له على ورقة وانصرف قائِلاً: "حاضر يا دكتور".

بعد نحو دقيقةٍ مِن الصَّمت، عاد الدكتور إلى حديثه وقال: "كانت تعمل لدي ممرّضة جميلة، أعتقد بأنّها كانت تتقصَّد أن تغريني ببعض حركاتها وبعض عباراتها، أو نظراتها، ذات يوم في الدوام المسائي بعد أن خَلَت العيادة من المرضى، أغلَقَتْ الباب وتمدّدتْ على سرير الكشف وقالت بأنها منذ عدَّة أيّامٍ تُعاني مِن تسرّعٍ في نبضات القلب، فقستُ النبض، ثم الضغط، ثم الحرارة، وقلتُ لها: "الحمد لله، لا شيء بكِ يا غيداء". فطلبتْ منّي أن أجري لها تخطيطاً للقلب بواسطة الإيكو، فاستجبتُ لها، وراحَت تفكّ أزرار قميصها، ظَهَرَ صدرُها الأبيض، برزَ النهدان الصغيران عندما فكَّت الحمّالة البيضاء. شبكتُ الأقطاب على صدرها، على ذراعَيها، على قدَمَيها. سألتها إن كانت تُعاني من الإجهاد عند الصعود على الدرَج؟ رفعت حاجبَيها بالنفي، طلبتُ منها أن تحبس أنفاسها قليلاً.

فككتُ عنها الأقطاب، وقلت: "قلبك سليم، لا شيء به". ابتسمت ولبثت مستلقية على السرير. في تلك اللحظات امتدَّت يدي إلى مساحة صدرِها، إلى بطنها، نزعتُ عنها بنطلون المُخمَل برفق، ظَهرَ الشورت البنفسجي الصغير، نزعته هو الآخَر، فتعرّى الجسد مِن آخر قطعةٍ كانت عليه.

كان المنظر مُذهِلاً بالنسبة لي وأنا أنظر إلى مساحات الجسد الشديد البياض كبياض الثلج، إلى وجهها الجميل، إلى شعرها الذهبي. مددتُ يدَي إلى كتفَيها فاستجابَت وانقلَبتْ على بطنِها، اكتشفتُ في تلك اللحظات جماليّات جسد المرأة وأنا أمرّر يدَي من الكتفَين إلى أصابع القدمَين. كانت في العشرين مِن عمرِها، وكنتُ أكبرها بِما يزيد عن ثلاثة عقود. كان جسدُها غضّاً، كانت المرّة الأولى التي خنتُ فيها زوجتي..".

تقدَّم نادلٌ يدفع عربةً، وضع أمامنا عبوتَي البيرة وطَبَق الفستق الحلَبي، وطبقاً مِن (الفتّوش).

فتحَ الزُّجاجتَين، سَكَب البيرة في الكأسَين تارِكاً رغوة البيرة تتصاعد عليهما، وانصرف.

رفع الدكتور عصمت كأسه وقال: "بصحتك يا صديقي".

رفعتُ كأسي التي لا مَسَت كأسه، وقلت: "بصحتك يا صديقي". رشف رشفة من البيرة، ثم أشعل سيجارة وقال: "استمرَّت العلاقة بيني وبين الممرِّضة الجميلة سنَتَين ونحن على ما يُرام. ولكن ذاتَ يومٍ فوجئتُ بأن تلك المُمرِّضة الوديعة تحوَّلَت إلى لبوة، وطَلَبت منّي أن أتزوّجها وأشتري لها بيتاً وأسجّله باسمها، وإلّا ستُشهّر بي ليس أمام زوجتي فحسب، بل ستُقدّم شكوى إلى الشرطة بأنّني قد اغتصبتها في العيادة..

في تلك اللحظات، لم أتمالك نفسي، فوجَّهتُ لها صفعة مدوّية وطردتها من العِيادة وأنا أوصمها بالعاهِرة، وطلبتُ منها ألّا تُريني وجهها ثانيّةً، وقلت: إذا رأيتكِ في العيادة مرَّة أُخرى، سوف أتّصل أنا بالشرطة.

نظرتْ إليّ بحدّة، نظرات لم يسبق لي أن عهدتها فيها مِن قَبل، حتى ملامح وجهها خرجَت عمّا كانت عليه، قالت وهي تكزّ على أسنانها: "سأجعلك تندم على اليوم الذي أنجَبَتك فيه أمّك يا عصمت". ومضت إلى الخارج بعصبيّةٍ وهي ترتعد.

كنتُ أعتقد بأن تلك المُمرِّضة الوديعة لا تُجيد التحدّث بألفاظٍ قاسية، وأنها مُسالِمة ولا يمكن أن تتحوّل إلى كائِنة شرّيرة. كانت تبدو هادئة ورومانسية، أبسطتني بسطاً لا حدود له، كانت تعرف كيف تثيرني بأناقتها، بثيابها الجديدة التي كنتُ أشتريها لها، وبين فترةٍ وأُخرى كنتُ أهديها في بعض المناسبات قطعة ذهب. طوال سنَتَين كاملتَين لم يفت يوم واحدٌ لم أمارس معها الجنس، باستثناء أيام دورتها الشهريّة، لم أكن أشبع منها، حتى في الأعطال، أو الأعياد، كنتُ أتّصل بِها فتأتي إلى العيادة، كانت تثيرني بوضعيّات جنسية لم يسبق لزوجتي أن فعلتها معي، أو أعتقد بأنّها لم تكن تعرفها، ولكنّها كانت ماتعة جدّاً إلى أقصى حدّ، وهذا ما كان

يجعلني أندفع إليها، وأضع فمي في فمها، في أيّة لحظةٍ سانحة.

كنتُ أرجو أن تبقى على ذلك، وتستمرّ علاقتنا، وكنتُ أضعف أمام طلباتِها وأستجيب لها دون تردّد، لكن لا أدري لماذا انقلبَت بغتةً إلى النقيض حتى أنّني صرتُ أشمئزّ من سماع صوتها عندما تتصل بي، فأغلق الخط لمجرّد سماع نبرةٍ من صوتِها".

وضع كوعَيه على المائدة وتابعَ يقول وأنا أنظر إليه بدهشةٍ: "ذاتَ ظهيرة لدى عودتي إلى البيت من الدوام الصباحي، فوجئتُ بزوجتي تقول وهي مُستنفرة: "جاءتني اليوم ممرّضتكَ يا دكتور، وتقول بأنّك أغريتها بالنقود والهدايا حتى استدرجتها كي تسلّم لك نفسها، وهي حامل منك!".

صُدِمتُ بكلامِها ولم أعقب عليه، اتَّجهتُ إلى غرفة النوم، استبدلتُ ثيابي، فلحقتني محمرّة الوجه والدموع تطفر من عينَيها قائلةً بصوتٍ حادّ: "لماذا لا تردّ؟".

قلت: "كانت ممرّضتي، ربما قالت لكِ ذلك لأنّني طردتها، واستبدلتها بممرِّضةٍ أُخرى".

قالت: "لكنك لم تُخبرني بأنك استبدلت المُمرّضة".

قلت مُرتبِكاً: "نسيت".

قالَت: "لماذا استبدلتها؟".

قلتُ: "لأنّني صرتُ ألاحظ عليها حركات مُريبة، فأردتُ أن أحسم الأمر وأُبعدها عَن العِيادة".

قالَت: "عندما جاءت، أدخلتها إلى البيت وظننتُ بأنّكَ أرسلتها لحاجةٍ، ولكنّها عندما قالَت لي ذلك، صفعتها، بصقتُ عليها، ودفعتُ بِها إلى الخارج وأنا أقول لها: "إذا رأيتكِ في شارعنا مرّة أخرى سأكسر قدمك يا فلتانة".

طمأنني كلامُها، وجعلني أبتسم بيني وبين نفسي، فتقدَّمتُ إليها، قبَّلتُ جبهتها، مسحتُ دموعَها، ضممتها إلى حضني، فهدأت وقالَت: "هل يمكن أن يأتي يوم وتنام فيه مع امرأة غيري يا عصمت؟ هل تتخيَّل

مُجرّد تخيّل أن يحصل ذلك؟ وبأيّ قلب..؟ بأيّة مشاعِر؟ أنتَ ومع امرأةٍ غيري! كل شيءٍ فيكَ هو لي يا عصمت، لي وحدي، كما أن كل شيءٍ فيَّ هو لك، لك وحدك.. حتى لو رأيتك بعينَي مع امرأةٍ أُخرى، لن أصدّق، لأن التصديق سيكون بمثابة الكارثة عليّ وعليك".

***

امتقع وجه الدكتور وهو يتحدَّث كما لو أنَّه يُحاول أن يُخفّف عَن نفسه من وطأة ألمٍ عميقٍ مُستبدّ بِه. صمت لثوانٍ، رشف آخر ما تبقّى من كأس البيرة وقال: "تحوَّلت تلك الممرّضة إلى عبءٍ عليّ، كانت تقف قرب العيادة، وكلّما يدخل مريض أو مريضة، تُشوّه سمعتي، تقول بأنّها تركت العيادة بسبب سوء أخلاقي، وعليهم أن يكونوا حذرين منّي. أخبَرَتني المُمَرِّضة الجديدة بأنّها حذّرتها منّي، وقالَت لها بأنّني أغري ممرّضاتي وأستدرجهن للجنس.

أمام هذه المستجدّات، لم أعرف ماذا أفعل، اقترحتْ المُمَرِّضة الجديدة أن أتقدّم بشكوى إلى الشرطة حتى

تكفّ عن تشويه سمعتي أمام المرضى. استبعدتُ الفكرة وخشيتُ أن تتفاقم المسألة أكثر وتخرج عَن السيطرة نهائياً، لكنّها هي التي بادرت إلى تلك الفكرة، وفوجئتُ ذات ظهيرة بضابطٍ كبيرٍ في الشرطة سبق لي أن أجريتُ عملية جراحية لقلبه، يتّصل بي ويقول بأنّه يُريد أن يلتقيني في مكانٍ ما، بعيداً عن العيادة وعن مركز الشرطة لأمرٍ هام وعاجل. استغربتُ لهذا المطلب الغريب، فبعد إجراء العمليّة تحوّلت علاقتنا إلى صداقة، وفي فتراتٍ متقطّعة أو بعض المُناسبات كُنّا نتبادل الزيارات العائلية فيما بيننا، وتوطدت علاقة صداقة بين زوجتَينا، وكنتُ أرى زوجتي في بعض الأوقات تتحدَّث هاتفياً مع زوجته وتُطيل الحديث معها.

ولأن الوقت كان قريباً من وقت الغداء، دَعَوته مع عائلته إلى تناول الغداء عندي في البيت، ثم نتحدَّث، فقال بأنّه يُريد أن نلتقي دون أن يعلم أحدٌ بذلك، فاخترتُ أن نلتقي هنا في هذا المقصف، ونتناول الغداء معاً. ثم اتَّصلتُ بزوجتي وأخبرتها بأنّني سأتناول الغداء مع

صديق، واتجهتُ من العيادة على الفور إلى المقصف وكلّي قلق واضطراب، بعد جلوسي بنحو ربع ساعةٍ، جاء الضابط بقامته الطويلة السامقة والشامخة يرتدي ثياباً مدنيّة، تصافحنا وتباوسنا كالعادة كلّما التقينا في أوقاتٍ مُتباعِدة في بعض المُناسبات، بدا أمامي من خلال قسمات وجهه بأنّه يحمل كلاماً غير سارٍّ بالنسبة لي، ولكنّه نظر إلى الأجواء وقال: "مكانٌ جميلٌ يا دكتور عصمت.. هل تُصدّق بأنَّها المرَّة الأولى التي أجيء فيها إلى هذا المكان؟".

وقبل أن أقول شيئاً أردف يقول: "أنا بطبيعتي أحب تناول الطعام في البيت، وزوجتي أيضاً لها هذه الطبيعة، أحياناً نُقرّر أن نتناول الطعام في مطعمٍ ما، وبعد أن نتهيّأ للخروج، تقول لي: "ما رأيك يا (حيّان) أن توصي المطعم كي يجلبوا لنا طعامنا إلى البيت، سنرتاح أكثر ونحن نأكل..؟".

فأفعل بمشورتها، وعندما يأتي الطعام، تفضّ عنه الغلاف وتقول: "هكذا سنأكل بأريحيّة حتى نشبع.. يا له

من طعامٍ لذيذ.. وكما أن المكتوب يظهر من عنوانه، الطعام يظهر من رائحته".

كنتُ أستمع إليه وأنا أعرف بأنّه أراد أن يمهّد لِما سوف يبثّني به من نبأ سيّء، ولذلك لم أعقب بشيءٍ، فتابع يقول: "أمّا إذا دُعينا إلى حفلةٍ عائليّة، فنذهب وأراها تنقر نقرات صغيرة على بعض الجوانب من ألوان الطعام، وعندما نرجع إلى البيت، تعدّ الطعام وتقول: "بصراحة يا حيّان، خجلتُ أن آخذ راحتي في الأكل وسط كل أولئك الناس، وتخيَّلتُ نظراتهم تتصوَّب إليَّ وأنا آكل".

قلتُ كما لو أنّني قاعدٌ على نار: "أقلقتني بكلامك في الهاتف يا سيادة العميد.. خير إن شاء الله؟".

نظر إلى الأمام وعيناه تضيقان وتتسعان كأنه ينظر إلى ضوء وقال: "هل تعرف فتاة اسمها غيداء عمران؟".

وقع الاسم كصاعقةٍ على سمعي وقلت وقد هبط قلبي هبطةً شديدة: "نعم، كانت ممرّضة سابقة عندي في العيادة".

زمَّ شفتَيه، وهزّ رأسه إلى الأعلى وإلى الأسفل هزّاتٍ بطيئة..

قلت: "ماذا لديكَ يا سيادة العميد؟".

قال: "أنا مُحرجٌ مِمّا سأقوله يا دكتور، ليتني لم أر نفسي في هذا الموقف المُحرِج معك، لكن تقدّمتْ تلك المُمرّضة بشكوى إلى مركز الشرطة تتهمك فيها بأنكَ اغتصبتها، ويبدو أن النقيب المُحقّق في المركز تعاطَفَ معها، وكان بصدد إحالة الشكوى إلى القضاء، وعندما جاءني بالإضبارة كي أوقّع عليها التوقيع الأخير، حملتُ القلم كي أوقّع، وفي تلك اللحظةٍ، لفت اسمك انتباهي، فأبقيتُ رأس القلم على الصفحة دون أن أوقّع، ووبَّختُ النقيب على تسرّعه، وطلبتُ منه أن يُخبر صاحبة الشكوى بأنّنا سنُحقّق في الأمر ونتواصل معها فيما بعد. حصل هذا منذ يومَين، لكن صباح اليوم دخل النقيب إلى مكتبي وقال بأنّ المُمَرِّضة عادت مرَّة أُخرى إلى القسم، وتقول بأنّنا إذا أهملنا الشكوى، سوف تطلب

مقابلة (وزير الدفاع)، وتشرح له الأمر وتقول بأنّنا أهملنا شكواها. فقلتُ له:

"عد إلى مكتبك وسأتصرّف". بعد لحظاتٍ من خروجه عاد يقول بأنّها ترفض أن تخرج من القسم وتُريد مُقابلَتي.

فأذنتُ له أن يُدخلها، كانَت مُنفعلة كثيراً إلى درجة أنّني توقَّعتُ بأنّها سوف تنقضّ عليَّ، ثم توجّه لي تهمةً التحرّش بِها.. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أرى فيها امرأة بكل ذاك الجَبَروت، وتوقَّعتُ أن يصدر منها أيّ تصرّفٍ غير مسؤول، أخبرتها بأنّنا لم نهمل الشكوى ونحن بصدد تدقيقها، لأن المُدّعى عليه شخصيّة عامّة ونحتاج إلى بعض الإجراءات لاستدعائه، مثل موافقة نقابة الأطبّاء، وما إلى ذلك.. فهدأتْ قليلاً وانصرَفتْ. لذلك أردتُ أن ألتقيك وأضعك أمام ما حدث حتى لا تُفاجأ بإجراءٍ لا مقدرة لي على احتوائه".

قلت: "ماذا تقترح عليَّ أن أفعل يا سيادة العميد؟".

صمتَ قليلاً وقال: "الوزير(ليّنٌ) مع النساء بحدود معلوماتي، ولديه نفوذ كبير، وأعتقد حتى (رئيس الوزارة)

يحسب له حساباً نظراً لمنزلته عند (السيّد الرئيس). إذا ذهبتْ غيداء إلى مكتبه في الوزارة سوف يقابلها ويستمع إليها.. كل ما هو دون (وزير الدفاع)، تحت سيطرتي، حتى وزير الداخلية يمكنني التدخّل، لكن (وزارة الدفاع) تفوق إمكاناتي، نصيحتي لك أن تُعالج الأمر مهما كلّفك مِن ثمن، لأن الوزير سوف يتدخَّل بنفسه حسب اطّلاعي على بعض الحالات المُشابِهة، خاصّةً وأن الفتاة صغيرة وجميلة، ونحن رجال ونفهم على بعضنا".

ركبني قلقٌ كبير وأنا أستمع إليه، فقال وهو ينظر إليَّ: "خذ الأمر بحكمة، لأن الصدام مع المرأة في واقِعنا يكون خاسِراً بالنسبة للرجل، مهما كان شكل الخِلاف، ومهما كان الرجل على حق، والمرأة على باطل، أنصحكَ بأن تجلس معها في أقرب وقت، وساعة قبل ساعة، وترضيها مهما كلّفكَ ذلكَ من ثمن، ومهما قدَّمتَ لها مِن تنازلات".

قلت: "هل الأمر مُخيفٌ إلى هذا الحدّ يا سيادة العميد؟".

قال: "بل أكبر من مُخيف يا دكتور، تبدو لي أشياء الآن، قد لا تبدو لك، ولكنَّك سترى نفسك في متاهةٍ لا تستطيع الخروج منها بسهولة، وكل يوم تأخّر يجعل موقفك أضعف، ويجعلها تستفحل عليكَ أكثر، لأنَّها الآن بصدد توسيع الدائِرة، برأيي أحصر خلافك معها، وسدَّ كل نافذةٍ تُريد أن تنفتح، لأنَّ خروجه من أيّة نافِذة سيجعل له جناحَين ليخرج عن سيطرتك ويستقوي عليك يوماً بعد يوم. أنا كضابط في شرطة الأمن الداخلي، أستوعب حيثيّات ذلك جيّداً، وأتوقّع ما يمكن له أن يحصل استناداً إلى حالاتٍ متشابهة جاءتني إلى القسم".

قلت: "في أسوأ الأحوال ما الذي يمكن له أن يحصل؟".

سحب نفساً عميقاً وقال: "يمكن أن تُسحب منك إجازة الطب بقرار وزاري وفق تدخّل وزير الدفاع، وأن تُزجَّ في السجن وتُصبح تحت رحمتها، لأنك لن تخرج إلّا إذا أسقطتْ شكواها عليك، وهنا سيُتاح لها أن تبتزَّك إلى أقصى ما يمكنها، لأنّ الوزير سيُنفّذ لها ما تُريده نظير ما

تُنفّذ له ما يُريد. أنتَ صديقي وأصارحكَ، والقلب الذي أعيش به الآن، لك فضلٌ في علاجه، ولا أريد أن أميل بك يميناً أو شمالاً. الأمر الآخَر الذي يُمكن له أن يتفرَّعَ عَن هذا الوضع الحسّاس الذي حطَّتكَ غيداء فيه، أنَها يمكن أن تُحرّض عليك أحد أخوتها، وتدَّعي بأنّك اغتصبتها، فينتقم لشرفه منك، ووسط ذلك هناك احتمال آخَر يمكن أن يتفرَّع، وهو تلفيق تهمة سياسية لك، إذا تفرَّغَتْ لك وجَعَلَتك شغلها الشاغل، لأنّها عملت عندك لمدّة سنَتَين، وسوف تستغل أيّة فكرة يمكن أن تتوصّل إليها مَخيّلتها الانتقاميّة. هذا الصنف مِن النِساء خطيرٌ جدّاً، وعدوانيٌ جدّاً إذا تمكَّنَ مِن الرَّجل، وعلى العموم هو صنفٌ نادرٌ جدّاً، فطوال خدمتي في هذا العمل، صادفتُ أربع حالات فقط من عشرات النزاعات التي كانت تحصل بين الرّجل والمرأة وحُلَّت بطرقٍ سلميَّة. بالنسبة للآنسة غيداء، فهي ستبقى تُصعّد وتستفزّ حتى تحصل منك على التنازل تلو التنازل، وهُناك احتمالٌ أيضاً بأنَّها رغم كل ما تُحصّله منك مِن مآرب، تبقى

مستمرَّة في انتقامِها دون أن تدعك تهنأ بحياتِك، لذلك يا صديقي، فإن الأمر هو أكثر مِن مُرعِب. نفّذ لها ما تُريد كي تكفّ عنك ولو إلى حين كخطوةٍ أُولى، وخذ منها تعهّداً بعدم التعرّض لك وأن كل ما حصل بينكما كان بمحض رضاها".

ثم نظر إليّ بعمقٍ وقال: "البنت مرتبة أمورها بشكل جيّد وأظن أن هناك مَن يساعدها ويُحرّضها على الاستمرار. تكمن الكارثة في مثل هذا النزاع الذي ينشب بين الرجل والمرأة سواء أكانت زوجته أو عشيقته، عندما تلجأ المرأة إلى رجلٍ آخر له نفوذ سلطوي، أو مادّي، فيدعمها لتحقيق بعض المآرب منها، وعلى العموم لا يوجد رجل يدعم المرأة في هذا النزاع من دون تحصيل مآرب قذرة منها حتى لو كان رجل دين.

في إحدى المرّات بعد أن خرجتْ من العِيادة، أجرت تحليلاً في المُستشفى على (المني) الذي كان عالِقاً على جسدِها، وادَّعَت في الشكوى بأنّه لك، وفي حال تقديم

الشكوى مع التقرير المُرفَق، سيتم التحقّق من خلال الطب الشرعي، وسيكون موقفك مُحرِجاً يا دكتور".

وجدتُ نفسي في مأزقٍ لا أعرف كيف سأخرج منه، استنتجتُ من كلام الضابط بأن هذه الحالات النادرة انتهت بهروب الرجل من المرأة والعيش في دولةٍ أُخرى، أو قتل المرأة، أو الرضوخ لها. تذكّرتُ حادثة سير وقعت لزوجة أحد الوزراء، يومها سرت إشاعة بين الناس، بأن الحادث كان مُدبَّراً من الوزير كي يتخلَّص من زوجته.

تخيَّلتني على شَفَا جُرُفٍ هارٍ أوشك على السقوط فيه، ولا بدّ أن أفعل شيئاً بشكلٍ سريعٍ لأن الوقت لم يكن لصالحي. كان عليّ أن أعرف في البداية إن كانت من النوع العدواني، تُريد الانتقام فحسب، أم أنّها مُسالِمة تهدف للحصول على مبلغٍ من المال، فتأخذه وتنصرف.

عدتُ إلى البيت مُنهاراً، تخيَّلتُ أن كل ما بَنَيته بكدّي وشقائي، يمكن لامرأةٍ مُعقَّدة نفسيّاً أن تهدَّه، تُسقطني مِن قمّتي، تُمرّغ سمعتي بين زملائي الأطبّاء وأقربائي ومعارفي.

لبثتُ في البيت، ولم أذهب إلى الدوام المسائي، في اليوم التالي، حاولتُ أن أتمسَّك بزمام نفسي، اتَّصلتُ بها في البيت وطلبتُ مِنها أن تعود إلى عملها، وأنّني سأصرف المُمَرِّضة الجديدة، لكنّني فوجئتُ برفضها، قلت: "أعتذر منكِ يا غيداء، تصرَّفتُ معكِ بعصبيّة وأنتِ تعلمين بأنّني لا أستطيع الاستغناء عنكِ، لم أعرف منزلتكِ في قلبي إلّا بعد فراقكِ لي، اكتشفتُ الآنَ بأنّني لم أعد قادِراً على العيش من دونكِ".

قالَت: "لكنكَ خرجتَ من قلبي، ولم أعد راغبةً بك، ولا بالعمل معك".

قلت: "أنا جاهز للزواج".

قالَت: "أنا لم أعد جاهزة، ولا يشرّفني الزواج منك، لي عندك حقوق وسوف أنتزعها منك بالقوّة".

كظمتُ غيظي وقلت: "سأعطيكِ كل هذه الحقوق وفوقها هدية ثمينة، أنتِ تستحقين، تعالي غداً إلى العِيادة في نهاية الدوام وسنتّفق بما يرضيكِ".

صمتتْ قليلاً، ثم قالَت: "لا بأس.. سوف آتي لأرى إن كُنتَ صادِقاً أم لا".

راودني شعورٌ بأن حياتي أصبحت رهينةً بيدها، وعليَّ أن أستردّها بكثيرٍ من الحكمة والحذر كما لو أنّني أفكّ لغماً يمكن بخطيئة صغيرة في جزءٍ من الثانية، أن ينفجر ويودي بحياتي.

في اليوم التالي، وأنا أترقَّب مضي الوقت لحظةً بلحظة، ولو كان الأمر بيدي لقدَّمتُ عقارب الساعة، كنتُ أعاين المرضى على عجل، حتى إنّ المُمَرِّضة كانت ترمقني بنظرات مُريبة وهي تدخل إلى غرفة الكشف وتُلاحظ تسرّعي كما لو أنّني أريد أن أتخلَّص من الكشف بسرعةٍ ليخرج المريض، ثم رأيتها تدخل الغرفة وهي تحمل كأساً من (البابونج) وتقول: "تبدو اليَومَ مُتعَباً يا دكتور.. هل أنتَ بِخَير..؟!".

قلتُ وأنا أُحاول أن أخفي اضطرابي: "لا شيء.. ربما لأنّني لم أنم جيّداً الليلة الماضية".

في نهاية الدَّوام الصباحي وعندما انصرفتْ المُمَرِّضة، دخلتْ غيداء وفق الموعد، وبدا لي بأنَّها كانت تنتظر خروجها في إحدى الأماكن القريبة حتى تأتي.

استقبلتها بحفاوةٍ مُصطَنَعة، لكنّها لبثت واقِفة وأبَت أن تجلس، قطَّبتْ أنفها وقالَت بلهجةٍ متعالية وهي تُشير بسبابتها إليّ باستصغار: "تنازلتُ وجئتُ إليك يا عصمت، وليكن بعلمك بأنّني الآن أجلس مع شخصيّاتٍ كبيرة ومهمّة في البلد، ويمكنني أن أسحقك بإشارةٍ واحدةٍ منّي".

شعرتُ برغبةٍ في توجيه صفعة قويَّة لها بكل ما أوتيتُ مِن قوَّة، لأنها كانت المرّة الأولى في حياتي وأنا أستمع لشخصٍ يهينني وأبقى ساكِتاً. تذكَّرتُ نصيحة الضابط لي بخطورة موقفي وحساسيَّته، وضرورة التعامل معها بكثيرٍ من الحِكمة والحَذَر.

توقَّعت بأنَّ أحد النافذين قد استدرجها كي يبتزَّني من خلالِها، وربما يكون ذات النقيب الذي حدَّثني عنه

الضابط، وقال بأنّه من خلال حديثه معه استشفَّ بأنّه متعاونٌ معها.

قلت: "أنا رهن إشارتكِ يا غيداء".

قالَت: "سوف أتنازل وأوافق أن نَتَزوَّج، لكن بشروطٍ يا يا عصمت..؟".

قلت: "حاضر".

- "تُطلّق زوجتك".
- "حاضر".
- "تشتري لي بيتاً وسيارة".
- "تِكرَمي".
- "تشتري لي نصف كيلو ذهب".
- "تِكرَمي".

عند ذاك، جلستْ، مددتُ كفّي إلى كفّها، فاسترخَت وقالَت: "هل صحيح بأنّني سأصبح زوجتك؟".

قلت: "صحيح".

لا أدري في ذروة تلك اللحظات البائسة، لماذا رغبتُ بِها، وتحرَّكَ عضوي مِن بين ساقَي حتى انتصَبَ، ضغطتُ على ظاهِر كفّها بشهوةٍ عارمة، ثم نهضنا ومضينا إلى غرفة المُعاينة وعضوي مُنتصِبٌ كأنَّه يُريد أن يخترق البنطلون، ضممتُها إلى صدري، وقعتُ على وجهها ومساحة صدرها بالقبلات، ثم عرّيتها تماماً، حملتها على ذراعَي ووضعتها على سرير الكَشف مثلما كنتُ أفعل، لا أدري لماذا في تلك اللحظات وأنا أمارس معها الجنس، اعتراني إحساسٌ بأنّني أصبحتُ على وشك أن آكلها، أن ألتهمها. كان جنساً غريباً مِن نوعه، الجنس مع امرأة تكرهها كل الكره، تُقبّلها حقداً وكرهاً وأنتَ تعرف بأنك بعد دقائق ستضطر إلى قتلها حتى تنجو بنفسك من قتلها لك.

كانت لحظات (شيزوفرينيّة) غريبة عشتها في حياتي، تداخَلَ فيها الفزع بالنشوة، الاسترخاء بالاضطراب، الحياة بالموت، الجمال بالقبح. مُروعٌ جدّاً أن ترى نفسك تتحوَّل بين ليلةٍ وضُحاها إلى قاتلٍ رغماً عنك،

تتوسَّل إلى الضحية بكل إمكاناتك كي تُجنّبك ارتكاب جريمة مُريعة بحقّها، لكنّها تُعانِد بشدّة، ولا تترك لك حلّاً وسطاً بين أن تقتلك، أو تقتلها، بين أن تُحطّمك أو تُحطّمها.

في تلك اللحظات الأكثر اضطِراباً في حياتي، خطر لي أن أهرب مع زوجتي وابنتي، ونعيش في بلادٍ أُخرى، لكن هذا الخَيار كان يعني أن أعيش منفياً طوال عمري، وأن سمعتي ستتمرَّغ في مدينتي وبين أهلي ومعارفي، وستجد الشكوى دويها بشكلٍ أقوى، فقد اغتصبتُ مُمَرِّضتي وهربتُ خارج البلاد، ثم تخيَّلتُ بأن نفوذ وزير الدفاع قد يطالني حيثما أكون.

كنتُ أنتشي وأتمزَّق في لحظةٍ واحدة، أقبّلها وأفترسها في لحظةٍ واحدة، أعيش ذروة ازدواجيتي، ذروة نفاقي، ذروة قذارتي، ذروة جبني، ذروة نرجسيّتي في تلك اللحظات الرهيبة. ربما لذلك لم أتمكّن من القذف رغم محاولاتي العديدة على عكس المرّات السابقة التي كنتُ أؤخر فيها القذف كي أستمتع أكثر. والأمر الغريب أن

عضوي تراجَع عَن انتصابه، وأصبح حَجمه كحجم فأرٍ صغير، كأنّه ليس ذاك الذي كان على وشك أن يخترق البنطلون قبل قليل، ليس بنطلوني فحسب، بل بنطلونها أيضاً.

بدوتُ أمام نفسي كما لو أنّني أستجديه كي ينتصب، أستجديه القذف وهو يستعصي ويأبى. قالت: "وجهك شاحِب عكس المرات السابقة، كما لو أنَّكَ لست الدكتور عصمت الذي أعرفه.. ما بك؟!". ثم ضحكتْ نصف ضحكة واستطردت تقول: "حتى عضوك يبدو مضطّرِباً بين أن ينتصب، وبين أن ينام على غير عادته وهو الذي كان يخترقني في اليوم مرَّتَين، مرّة في الدوام الصباحي، ومرَّة في الدوام المسائي، ويبقى في ذروة لياقته كحصان".

أربَكَني كلامُها أكثَر فأكثَر، ضغطتُ على نفسي حتى بلغتُ القذف، وللمرة الأولى شعرتُ ببرودة ذاك القذف، كان قذفاً دون رعشة نشوى، دون لذة، كان قذفاً باهت الإثارة، مُربِكاً. في السابق عندما كنتُ أمارس معها، كنتُ أشعر بأنّني حصانٌ بكامل لياقتي، في تلك المرَّة استبدّ بي

شعورٌ بأنّني حصانٌ عجوزٌ خاملٌ مطعونٌ بسهمٍ في ظهره".

تنفَّس الصعداء، ثم زفر وقال: "نهضنا عَن السَّرير، ارتدينا ثيابنا، طلبتُ منها أن تعدّ لنا فنجانَي قهوة كما كانت تفعل، رميتُ بجسدي الثقيل على الكرسي كأنّني عدتُ توّاً من حربٍ ضَرُوس بانتظارِها حتى جاءت تحمل القهوة، وضَعَتها على المنضدة الصغيرة وقَعَدَتْ إلى جواري.

حملتُ كأس الماء، جرعتُ ما فيها دفعة واحدة وطلبتُ منها أن تملأها مرّةً أُخرى، فأخَذَتها واتَّجَهَت إلى الصنبور، في تلك اللحظة، أخرجتُ قرصاً صغيراً كنتُ قد وضعته في جَيبي وقَذَفته في فنجانها. عادت حاملةً الماء، وقبل أن تصلني سَقطَتْ على الأرض، وتحطَّمت الكأس مما أدّى إلى جرحٍ في يدها، وأخذ الدم يسيل من راحة اليَد. أعنتها على النهوض، ثم ضمَّدتُ يدها، ووضعتُ عليه لاصِقاً طبّياً.

قالت: "كنتُ أمشي بشكلٍ طبيعي، وكأنّ أحداً دَفَعَني دفعةً قويَّةً مِن الخلف".

أردتُ أن ألطّف الجَو فقلت: "ربما منظرك مِن الخلف أغراه، فدفعكِ بسبب غيرته الشديدة منّي".

قالَت: "دعك مِن المزاح.. فعلاً كأنّ أحداً قد دَفَعَني".

قلت: " لا، لم يدفعكِ أحد، بل مددتِ خطوة بشكلٍ خاطئ مِمّا أدّى إلى وقوعك".

قَعَدَت مرة أُخرى في موضعها على الكرسي، حَمَلَت الفنجان، رفعته إلى فمها، وغدت ترتشف القهوة وأنا أنظر إليها وأقول في نفسي: "بعد أربعٍ وعشرين ساعة سيقضي هذا القرص عليكِ نهائياً، ستختفين عن كل هذه الأرض، وأرتاح منك إلى الأبد، أتنفَّس الصعداء كما لو أنّني لم أتنفَّس من قبل، وسوف أشعر بأنّني أزحتُ صخرةً ثقيلةً عَن كاهلي".

بعد أن فرغنا من احتساء القهوة، قلت لها: "تعالي مساء الغد حتى نختار البيت الذي سأشتريه لك من أحد

المكاتب العقارية، وبعد ذلك سنستمر في تلبية طلباتكِ الأُخرى".

نهضتْ عَن الكُرسي، رَمَقتني بنظرةٍ وأنا ما أزالُ قابِعاً في مكاني دون أن أنهض، أو بالأصح: لم تكن لديَّ رغبة أن أنهض، قالت: "اتفَّقنا.."، ثم أدارت ظهرها ومضت وأنا أنظر إليها حتى خرجت وصفقت الباب خلفها.

***

صُدِمتُ بسماع هذا الكَلام، وهو الشخص الذي بدا لي وَدوداً، وهادِئاً، الطبيب المِثالي الذي تَرَك الطب وتفرَّغ للقراءة والاستماع إلى الموسيقى، وإذا به مُجرمٌ قَد غَدَرَ بفتاةٍ في مُقتبَل العُمر بعد أن مارس معها الجنس طوال سنَتَين مُتتاليتَين وهي تعمل مُمرِّضة في عيادته، نهضتُ بشكلٍ تلقائيٍّ، ومضيتُ خارِجاً بخطواتٍ سريعة قبل أن يجلب لنا النادل وجبة الطعام التي أوصى بِها، لحقني يسبقه صوته إليّ، لم ألتفت إليه، لبثتُ أهرول وأنا أشعر بالذعر حتى من نبرات صوته التي غدت تلاحقني.

أشرتُ لسيارة أُجرة، ركبتها على عَجَل وعدتُ إلى البيت أرتعد، أحكمتُ الباب على نفسي وأنا أتخيَّل كيف أنّني جلستُ مع شخصٍ تلوَّثت يداه بقتل إنسان. يا إلهي، كيف يَستطيع الإنسان أن يقتل إنساناً؟ كيف يُجيز لمخيّلته أن تتلوَّث بهذه الفكرة الموبوءة، التي يتجرّد معها من كل ذرة من إنسانيته ويتحوَّل إلى وحشٍ فتّاك؟!".

استلقيتُ على السرير، قرَّرتُ أن أنسى كل شيءٍ سمعته من ذاك الرجل، ندمتُ على تلك اللحظة التي رأيته فيها. دوى صوت جرس الباب على شكل إيقاع البيانو، تخيَّلتُ قامته الطويلة واقفة خلف الباب، لبثتُ مستلقياً، بعد قليلٍ عاد الجرس يرنّ بشكلٍ متواصل عدّة مرّات. نهضتُ من السرير، مشيتُ بتُؤدَةٍ، تقدَّمتُ مِن الباب، ألصقتُ عيني في العين الساحرة، رأيت وجهه الأحمر الذي بدا كاريكاتوريّاً من خلال العين الساحرة. قهقرَتْ بي خطواتي إلى الوراء كأنّني لصٌّ في بيتٍ غريب، توالى الرَّنين، تحوَّل إلى نشازٍ في سمعي. ضغطتُ براحتَي كفّي على أذنَي

بقوَّةٍ، أغمضتُ عينَي، توقَّف الرّنين بغتة، دنوتُ ثانيةً إلى الباب، نظرتُ في العين الساحرة، لم أر أحداً.

الفصل الثاني

اتَّصلَتْ بي (إلهام) وقالت بأنّها قادمة بعد نحو ساعة، إلهام تكتب الشعر، تعرَّفتُ إليها بعد وجودي في دمشق بنحو أربعة أشهر في أمسية قصصية، شاركتُ فيها. بعد انتهاء الأمسية، تقدَّمتْ إليّ داخل القاعة وعرَّفَتني بنفسها، ثم عرَّفَتني بفتاة أُخرى كانت بصحبتها، قالت بأن اسمها (ترنيم). فرحَّبتُ بهما، عندها قالت: "أنا مُبتدئة في كتابة الشعر، إن لم تُمانع يا أستاذ أريد رقم هاتفك حتى أتصل بك بين فترة وأُخرى، وأطلعك على قصائدي الجديدة التي أكتبها".

فأمليتُ عليها رقم هاتفي، سجَّلَته في دفترٍ صغيرٍ كان بحوزتها، وانصرَفَت بصحبة صديقتها.

بعد ذلك توطَّدت العلاقة بيننا من خلال بعض اللقاءات في أماكن مختلفة كنّا نتواعد أن نلتقي فيها، ثم تحوَّلت إلى زياراتٍ في بيتي، وكانت صديقتها ترنيم ذات الأنف المُدبَّب تصحبها عندما تكون الزيارة إلى البيت،

فتجلس وحدها في غرفةٍ، وأجلس مع إلهام في غرفةٍ أُخرى.

فتاةٌ تجاوزت العشرين مِن عمرِها بسنتَين، بشرتها سمراء، يبدو حجمها صغيراً كما لو أنّها طفلة، ممتلئة بالاكتئاب على الرغم من نزعات رومانسية تبدو في قصائدها، رومانسية مُطعَّمة باليأس، تكثر في قصائدها كلمات مثل: "انهيار، موت، يأس، حرمان، حريق، خيانة، غدر، حب، شوق، عبث، ظمأ، نهاية، انطفاء، غروب"، وما إلى ذلك. وهي مُتمرّدة على الرغم من أنّها ابنة لأبوَين متديِّنَين مُحافِظَين، تبدو مضطربة، قلقة، متسرّعة. أحياناً في الواحدة ليلاً تُهاتفني لتقرأ لي مقطعاً من قصيدةٍ باشَرت في كتابتها. أحببتُ نزعة التمرّد الحقيقيّة فيها، توسَّمتُ بأن هذه الثورة المُتّقدة في أعماقِها يمكن أن تنتج أدباً جيداً في المستقبل.

جاءت إلهام إلى البيت برفقة صديقتها ترنيم، ولأوَّل مرّة عرفتُ بأن ترنيم هي من الطائفة (البهائيّة). لم أكن أعرف كثيراً عن المُعتَقَد البهائي، ولكنَّني من خلال

حديثها صرتُ أتعرَّف على بعض الجوانب من هذا المُعتَقد، كانت ترنيم إنسانة مُسالِمة وبالغة الطّيب، تؤمن بالمحبة والمساواة بين الناس جميعاً وأنَّهم في حقيقة الأمر عبارة عن عائلة واحدة، تقيم في بيتٍ واحد هو كوكب الأرض، وأفضل أفراد العائلة هو ذاك الذي يُنتَفَع به أكثر، وأسوأهم هو ذاك الذي يُضرّ به أكثر.

كعادتها بدأت إلهام بجلي الصحون المتراكمة، ثم غسيل الثياب دون أن تسمح لترنيم بمساعدتها، وبعد أن انتهت، جلست إلى جانبي على الإسفنجة، فحملت ترنيم كتاباً وراحت تقرأ في الغرفة الأُخرى التي اعتادَت أن تذهب إليها حتى تتركنا وحدنا.

أخرجتْ إلهام من حقيبتها السوداء كاسيتاً يحمل غلافه صورة لـ (عبد الحليم حافظ)، فتحتْ باب المسجلة، دسَّت الكاسيت في الباب وقالت: "بائع الكاسيتات على الرَّصيف تحت جسر (فكتوريا)[6] كان قد وضع هذه الأغنية ورفع صوتها: (لو مريت في طريق

---

[6] جسر وسط دمشق يصل ما بين (البرامكة)، و(أبو رمانة).

مشينا مرة فيه، أو عديت في مكان كان لنا ذكرى فيه ابقى افتكرني، حاول تفتكرني). تذكَّرتكَ، فأردتُ أن أجلبها لأسمعكَ إيّاها".

قلت: "غنّاها العندليب لـ (سعاد حسني)".

قالت: "هذا المقطَع مؤثّر".

قلت: "الأغنية كلها مؤثّرة، من عنوانِها، إلى كلماتِها، إلى لحنِها، إلى غنائِها".

قالَت: "أسعار الكاسيتات ارتفعت كثيراً هذه الأيّام، اشتريته بخمس ليرات، قال بأنه من النوع الأصلي".

شغّلتْ الأغنية من بدايتها، فبدأتُ أنظر إليها وهي تنظر إليّ ونحن نستمع، كان الوقتُ يمضي دون أن نشعر به ولم يبد أحدنا حركة سوى النظر حتى انتهت الأغنية وعندها أدركنا أن ساعةً كاملةً مضت.

كانت ساعة من الصمت اكتشفنا فيها لأول مرة بلاغة لغة الصمت، بلاغة لغة النظرات. بعد أن انتهت الأغنية،

نهضتْ إلهام، طرقت الباب على صديقتها وخَرَجَتا دون أن نتبادل كلمة واحدة.

***

تناهى رنينُ الهاتف، رفعتُ السماعةَ، جاء صوت الدكتور عصمت، أغلقتُ السماعة على الفَور، فعاد الرَّنينُ وأنا أنظر إلى جِهاز الهاتف حتى توقَّف الرَّنين، ثم بعد قليلٍ عاد يرنّ، تكرّرَ ذلك نحو نصف ساعة بشكلٍ متواصل، وأنا أنظر إلى الهاتف دون أن أرفع السماعة.

كان قد مضى أسبوعان على اللقاء الأخير به، وكان معرض الكِتاب قد انتهى. ظننتُ بأن كل شيءٍ بيننا انتهى أيضاً، لكن أخذت اتّصالاتُه الهاتفية تتوالى بشكل يومي، وعندما أرفع السماعة وأسمع صوته، أغلق الخط فوراً. أحياناً كان يقول: "اسمع مني نصف دقيقة وأغلق الخط". جاء عدَّة مرّات يطرق الباب بيده، يقرع الجرس، كنتُ أنظر إليه ولا أفتح، أردتُ أن يفقد الأمل بتواصلي معه.

بعد نحو شهرَين على ذلك، حضرتُ محاضرة لـ (غالب هلسا) تحدَّث فيها عَن جماليات المكان عند باشلار. كنتُ قد قرأت أعمال هلسا: سلطانة، ثلاثة وجوه لبغداد، الخماسين، الروائيون، وكتبتُ عنه مقالة نشرتها في الصحيفة الخليجية التي أكتب فيها.

بعد انتهاء المحاضرة، فوجئتُ بالدكتور عصمت يدنو إليّ، ويمدّ كفّه ليصافحني. نظرتُ إلى كفّه، تردَّدت في الاستجابة، وجدتني في موقفٍ مُحرج وكان حولنا بعض الأصدقاء، فمددتُ يدي، صافحته وقلت: "كيفك دكتور، أرجو أن تكون بخير؟". انفتحت أسارير وجهه، لبث ممسكاً يدي ومضى بي برفق نحو الباب الخارجي لقاعة المُحاضَرات.

قال: "صدّقني يا أستاذ توفيق، ندمتُ أشدّ الندم على ما بدرَ منّي، لكن لم يعد ينفع الندم، هذه هي الحقيقة، وجدتُ نفسي مُندفِعاً فارتكبتُ تلك الجريمة القذرة. كان يمكن لي ألّا أُخبرك بِها، لكنّني ارتحتُ لك إضافة إلى أنّك إنسانٌ أديب، ووثقتُ بك لعلّكَ تقول لي شيئاً يمكن أن

يُخفّف عن حجم مأساتي. كنتُ أعتقد بأنها عندما تموت، سينتهي كل شيء، لكنّني اكتشفتُ بأن كل شيء التهَبَ عليَّ أكثر بعد موتها، وغدا شبحُها يُلاحقني ليلاً نهاراً، كلّما أرى فتاة بعمر غيداء، أو تشبهها ولو قليلاً، أتمزَّق مِن داخلي. نعم، أعرفُ جيداً بأنّني حرمتها من أثمن ما يمكن للإنسان أن يمتلكه، حرمتها من متعة الحياة، من تكوين عائلة، وأن تُصبح أمّاً وجدّة، أشياء أكثر مِن أن تُحصى حرمتها منها وهي في أوج إقبالها على الحياة.

والآن، مضت أربع سنوات على تلك الجريمة، وما يزال شبحُها يُطاردني حتى اليوم، كأنها وقعت قبل ساعة، كل شيء خرج من يدي ولم أعد قادِراً على فعل شيء سوى أن أتألّم.

تركته يتحدَّث وأنا أصغي إليه بإنصاتٍ، فتابع يقول وقد انزوينا في ركنٍ من ساحة المركز: "أمرٌ غريبٌ حصل لي في ذاك اليوم ما زال يحيّرني حتى الآن، وهو أن زوجتي ماتت في ذات الوقت المحدّد لموت غيداء. أحياناً يلتبس

عليّ الأمر فأتخيَّل بأنّني أعطيتُ القرص لزوجتي، لأنَّها لم تكن تُعاني من أيّ مَرضٍ، كان موتها غامضاً بالنسبة لي.

التزمتُ البيت عشرة أيّام، كل شيء في البيت كان يذكّرني بِها، كانت رائحتُها تفوح بقوَّةٍ من كل ركن، ذهبتُ إلى العيادة لعلّي أنسى، مِن جهةٍ أُخرى كانت غرفة المعاينة تُذكّرني بغيداء، هذه العيادة التي أعالج فيها المرضى، ارتكبتُ فيها جريمة قتل. لم أستطع أن أكمل عملي أكثر من ستّة أشهر، مضت عليّ ثقيلة ومؤلمة حتى أحسستُ بانهيارٍ، يومها خطرتْ لي فكرة أن أعاقِب نفسي وأتوقَّف عَن مهنة الطب لأنّني خنتُ المهنة، خنتُ حتى العيادة التي أعالج فيها المرضى، فبعتُ البيت والعيادة، واشتريتُ هذه المزرعة كي أبتعد فيها عن أجواء المدينة، وعن كل ما يُذكَرني بالعيادة.

بعد نحو شهرٍ من وجودي في المزرعة، اتَّصل بي العميد وقال بأنّه استطاع أن يحصل على هاتفي الجديدة مِن نقابة الأطبّاء، ويُريد أن يراني لأمرٍ عاجل.

دعوته لزيارتي في المزرعة، فجاء بعد انتهاء دوامه، كان بثياب الشرطة الرسميّة، ترك سائِقه في السيّارة ودخلنا البيت.

بعد جلوسه بقليل، قال: "لا أعرف من أينَ أبدأ معك لأن ما سأقوله لك له أكثر مِن بداية، وكل واحدة أهم من الأُخرى".

لبثتُ أنظر إليه دون أن أتكلَّم، فقال: "سأسألك سؤالاً بحكم أنّني صديقك وليس بحكم أنّني ضابط شرطة".

قلت: "تفضل يا صديقي، سل ما تشاء".

قال: "لماذا تركتَ الطب، واعتزلتَ الناس إلى هذا المكان؟!".

نظرتُ في عينَيه في اللحظة التي كان ينظر فيها في عينَي، وقلت: "شعرتُ بأنّني بنيتُ مئات الأبنية، وحان الوقت كي أتَّخذ لنفسي بناءً وأستريح فيه".

لبثتْ نظراتُه عالِقةً في عينَي كأنّه يبحث فيهما عن شيءٍ ما، وقال: "هذا حقّك الطبيعي". وبعد قليلٍ مِن الصَّمت

رفع نظره عنّي وصار يجول بنظراته على أركان الغُرفة التي نجلس فيها، واستأنف يقول: "هل استجدّ شيءٌ بينك وبين ممرّضتك غيداء؟".

صُدِمتُ بِما سمعت، نظرتُ إليه، فرأيته يُعاود النظر إليَّ بعينَين نافِذتَين بانتظار ما سأقول.. ارتبكت، كما لو أنّني نسيتُ اللغة، لم أعثر على الكلمة التي أقولها. وبعد زهاء دقيقتَين وهو ما يزال يصوّب نظره إليَّ تهتهتُ قائِلاً: "لم يستجدّ شيء بعد".

قال: "تقصد بأنّكما اتفقتما على صيغةٍ مُعيّنة؟".

قلت: "لا..".

هزَّ رأسه مستفسراً: "لم أفهم!".

أحسستُ بجفافٍ في فمي، جرعتُ شربة ماء، ولم أعد أعرف ما عليَّ أن أقوله، فهو في النهاية ضابط أمن، ويمكن لزلَّة لسانٍ تبدر منّي أن تودي بي إلى السجن، بل إلى حبل المشنقة، وقد تسرَّب إليَّ شكٌّ بأنّه جاء خصيصاً ليعرف منّي شيئاً عَن مُلابسات هذه الجريمة.

أخذ نَفَساً عميقاً، ثم تنحنحَ وقال: "منذ مُدَّة تقدَّم والد غيداء إليَّ بشكوى يقول فيها بأن ابنته اختفت.. أجرينا عمليات بحثٍ عديدة، ولكن لم نعثر عليها، متى آخر مرّة التقيتها دكتور؟".

نطق السؤال بلهجةٍ تحقيقيّة ربما لم ينتبه إليها، فتضاعف بي الإرباك، وقلت وأنا أحاول أن أسيطر على نفسي وأبدو طبيعيّاً أمامه:

"لا أعرف بالضبط، لأنّها في الآونة الأخيرة كانت تأتي بشكل شبه يومي إلى العِيادة، وكنّا نتفاوض للوصول إلى اتِّفاق بيننا، لكنَّها فجأة انقطعت عنّي، فظننتُ بأنَّها سافرت، أو ربما تكون مريضة في البيت".

نهض وقال: "تأكّدنا بأنَّها لم تُسافر يا دكتور، ولم تخرج من المدينة، كما أنَّها لم تكن مريضة". ثم غادر وتركني في حيرةٍ من أمري. كنتُ حتى تلك الساعة أعتقد بأن غيداء ماتت، كان ذلك حاسِماً بالنسبة لي، ولذلك لم أتتبَّع ما حصل، ومن جديد حضر موت زوجتي المُفاجئ إلى ذاكرتي بقوَّةٍ، وأخذت الأمور تلتبس عليّ بين أن التي

جاءت إلى العِيادة في ذاك الوقت كانت زوجتي، أم كانت غيداء. وجدتُ نفسي في تيهٍ وأنا أحاول أن أستذكر جيّداً تفاصيل تلك الساعة الأخيرة، أجل، كانت غيداء، وقد سقطت على الأرض، وجُرِحَت يدها، فضمضتها وألصقتُ لاصِقاً طبّياً على الجرح بنفسي. وقبل ذلك مارستُ معها الجنس، وكان أسوأ عمليّة جنس مارستها في حياتي، كان جنساً يثير الغَثَيان، لكن مِن جهةٍ أُخرى فها هي غيداء قد توارَت عَن الأنظار، وأن التي ماتت هي زَوجَتي، خطر لي أن أجري كشفاً بالطب الشرعي على جثَتها، لكنّني تراجعتُ عن ذلك حتى لا أفتح على نفسي باباً آخَر أنا في غِنى عنه.

كل شيءٍ انقلب رأساً على عقب مرَّةً أُخرى، شردتُ بمجيء الضابط: هل حقّاً اختفت، أم أنهم اكتشفوا بأنها ماتت نتيجة تناول القرص القاتل، ولا يوجد لدى أحدٍ دليل إن كانت هي التي تناولت القرص كي تنتحر، أم أن أحداً أعطاه لها؟ تشتتتْ بي الأفكار بين الاحتمالَين، خطر لي أن أستكشف الأمر عَن طريق بعض جوارها، ولكنّني

لم أرغب في العودة إلى تلك الطقوس المدمّرة للأعصاب. والأمر الآخر، خشيتُ أن اقترابي من تلك الأماكن قد يثير بعض الشبهات على مبدأ أن المُجرم يستطلع مكان جريمته، ويمكن أن يُضبَط هُناك". أطلق تنهيدةً عميقة وقال: "يبدو بأن تلك المرأة خُلِقت لتفسد عليَّ حياتي، أجل هناك أناس كما لو أنَّهم خُلِقوا ليفسدوا حياة أناس.

بعد عدَّة أيّامٍ مِن زيارة الضابط لي، سمعتُ دويّ عيارٍ ناري بالقرب من البيت، وترافَقَ ذلك بنباح الكلب. كانت الساعة تُشارف على الواحدة ليلاً، وكنتُ جالِساً أشرب. انتصبتُ واقِفاً على قدمَي، دخلتْ (فراقد) مذعورة تحتمي بي. قلت: "لا تخافي..". نزلتُ إلى الطابق السفلي وفراقد تمسك بي من الخلف وترتجف. كان الكلب ما يزال ينبح بشكلٍ متواصل، أقفلتُ الباب الحديدي جيِّداً دون أن أفتحه، دون أن ألقي نظرةً إلى الخارج. عدتُ إلى غرفتي وفراقد تتبعني، غدا الكلب ينبح بشكلٍ متقطّع، وبعد قليلٍ خفتَ نباحه حتى ركن إلى الصمت.

في تلك اللحظات أدركتُ مدى حاجتي إلى وجودِ سلاحٍ معي وأنا في هذا المكان المنعزل عَن الناس، لبثتُ يقظاً دون أن أجسر على النوم، ولبثتْ فراقد يقظة معي. خرجتُ في الصباح إلى المدينة، ابتعتُ مُسدّساً، وأتيتُ بورشة كهرباء، جعلتُ العُمّال ينصبون حول البيت مصابيح كهرباء عالية الإضاءة.

الفصل الثالث

عندما سمعتُ هذا الكلام من الطبيب، رأيتني أصعد السيارة التي كانت واقِفة أمام الباب، واتَّجهنا إلى المزرعة التي يقيم فيها. كانت لديّ رغبة أن أرى تلك الأجواء التي يعيشها، أن أتعرّف على شخصيّته أكثر. خرجنا من زحمة المدينة إلى فسحة الطبيعة، كان يقود بتُؤدَةٍ وهو صامت، لم يفه بكلمة واحدة حتى رأيته ينعطف إلى طريقٍ مفروش بالأسْفَلت على تخوم المدينة، مضينا وسط أرضٍ مُعشَّبة على جانبَي الطريق حتى وصلنا إلى فيلا أنيقة. لدى وقوف السيارة، تقدَّمتْ إلينا امرأة ذات بشرة شقراء، شاهقة الأنوثة في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها، ووقفتْ بجانب السيارة. نزلنا دون أن يتكلَّم معها، وهي تنظر إليه تارةً وإليّ تارةً أُخرى. تقدّم كلبٌ بدينٌ بني اللون كان قابِعاً على ذيله قرب جذع شجرة صفصاف قبالة البيت، وقف إلى جانب المرأة وصار هو الآخر يوزّع نظراته إلينا. شبكَ الدكتور عصمت كفّه بكفّي وقال وهو يمدّ نظره إلى رحابة فسحة الطبيعة: "مكان

هادئ، لكل وقتٍ فيه مزاياه، حتى الليل الساكن الداكن له مزاياه".

مشينا حول البيت ببطء شديد، تبعَنا فيها الكلب بينما لبثتْ المرأة واقِفة في مكانِها:

- "تبلغ مساحة هذه المزرعة عشرين دونماً، كانت لأحد الصاغة، باعها وهاجر مع عائلته إلى كَنَدا. لم أجلب شيئاً من بيتي، بعته بكل ما فيه، مثلما بعتُ العيادة بكل ما فيها. أردتُ أن أفتح صفحة جديدة مِن حياتي، أكتشف فيها وجهاً جديداً من الحياة، انتقلتُ مِن الصخب إلى الهدوء، مِن المواعيد إلى الفراغ، حتى هاتفي غيَّرتُ رقمه، ولذلك يبقى صامِتاً إلّا ما نَدَر". قالها ونحن نمشي للحظاتٍ ونقف للحظات، ثم استدار بي واتَّجهنا إلى باب البيت قائلاً: "تفضَّل يا صديقي..".

مضينا بجانب المرأة، فقال دون أن ينظر إليها: "كيفك فراقد؟".

قالت: "بخير أستاذ..".

كان البيت كبيراً ومؤلَّفاً مِن طابقَين، دنونا من الدَرَج المفروش بسجّادٍ أحمر، صعدنا إلى الطابق الثاني:

- "في بداية عملها، كانت فراقد تقول لي: "دكتور"، فنهيتها عَن ذلك لأنّني أريد أن أنسى تلك المهنة التي تُذكّرني بما اقترفتُ بحق غيداء. ثم قالت لي: "يا سيّدي". فنهيتها عن ذلك أيضاً وطلبتُ منها أن تكتفي بـ "أستاذ".

قلت: "أعتذر لأنّني أيضاً كنتُ أقول لك: دكتور".

قال: "بعد الذي حصل، وخاصّةً بعد أن بعتُ العيادة واستقلتُ رسميّاً من الطب، صارت الكلمة تستفزّني عندما أُنادَى بِها. لكن الناس عندما يرونني مُصادفةً في السوق يقولون لي: "دكتور"، وأحاول ما أمكن أن أتجنَّب سماع تلك الكلمة، أحياناً أشعر بأنّها تخترق سمعي كالرصاص، وتتقافز صورة غيداء معها إلى مُخيّلَتي".

مشينا في بهو الطابق الثاني إلى بابٍ خشبي من درفتَين مصنوع من خشب الآلدر. مدَّ يده إلى المقبض، فتح درفةً وقال وهو يُشير لي بيده: "تفضَّل..".

- "شكراً". قلتها ومددتُ خطواتي إلى الداخل، كانت غرفة كبيرة مفروشة بأثاثٍ أنيق، باهرة النظافة والترتيب، كل شيء فيها كان يبدو في موضعه المُناسب له.

قال: "فراقد مهووسة بالترتيب.. عندما أخرج من الغرفة، تدخلها على الفور، تتحقّق من وجود كل شيءٍ في موضعه. كل يومٍ تستبدل مُلاءة السَّرير، تطبخ طعاماً لذيذاً، هي سيدّة بيت ممتازة، لكنّها غير محظوظة، تزوَّجَت، وبعد خمس سنواتٍ من الزواج طلَّقها زوجُها بسبب عدم الإنجاب، تقول بأنّه كان طيّباً، يريد أن يبقيها زوجةً له، لكن المرأة الثانية التي تزوَّجها بهدف الإنجاب اشترطَت عليه أن يُطلِّقها".

تقدَّمتُ إلى الكتب المصفوفة بشكلٍ مُتساوٍ في الأحجام على الرفوف الخشبية، نظرتُ إلى العناوين، إلى أسماء الكُتّاب.

قلت: "هذه من عيون المؤلّفات المهمّة في تاريخ الكِتابة".

قال: "في البداية كنتُ أجلب الكُتب دون تدقيق، لكن مع الأيّام وجدتني أصبح كالصيّاد الذي يعرف إلى أيّ أرضٍ يذهب بحثاً عَن صيدٍ ثمين. دمشق عامرة بالمكتبات النفيسة، لكن الأمر يحتاج إلى مهارة في البحث، وإلى صبرٍ حتى أجد الكتب التي تبهرني. ذهبت عدّة مرات إلى بيروت أيضاً اقتنيت من مكتباتِها مجموعة جيدة مِن الكُتب، اكتشفتُ شيئاً غريباً بعد نحو سنة من القراءات المختلفة والعشوائية".

قلتُ: "وهو..؟".

قال: "وهو أنّ الكُتب تُشبه الأشخاص، فبعض الوجوه كما لو أنّها تحمل لك مُضادات ضد الاكتئاب، فينشرح صدرك لمجرَّد أن تنظر إليها مهما كنتَ ضيّق الصدر، وبعض الوجوه كما لو أنّها تُصدر لك نفحات الاكتئاب، فيضيقُ صدرُك لمُجرَد أن تنظر إليها مهما كنتَ مُنشرح الصدر". ثم أستأنف يقول: "أميل كثيراً إلى أدب الرحلات، والسِيَر الذاتية، وكتب التحليل النفسي، إلى جانب الرواية، والقصة القصيرة. بعض الكتب أتجنَّبها

لمجرّد رؤية اسم الكاتب عليها، وبعض الكتب أقبل عليها، لمجرّد وجود اسم الكاتب عليها".

تناهت نقرات خافِتة على الباب، ولجت على إثرها المرأة، تحمل على سفرة فنجانَي قهوة مع كأسَين من الماء.

حطَّت على كل (ترابيزة) فنجاناً يتصاعد منه البخار، مع كأس الماء، واستدارَت فقال: "جهّزي لنا عشاءً طيِّباً يا فراقد، لديَّ ضيفٌ عزيز". رفعتْ المرأة -ذات الوجه المُضاء- رأس سبابتها إلى عينٍ، ثم إلى العين الأُخرى وانصرفت.

مدَّ سيجارةً إليّ، وأشعل واحدة لنفسه، جلسنا نحتسي القهوة وندخّن، قال والسيجارة معلَّقة بشفته العُليا: "يوماً بعد يوم رأيتني أدخل عالَم القراءة الذي أبهرني، وعندما أحمل كتاباً لأقرأه، أنشغل به وأنسى كل شيء".

***

كانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما دخلت المرأة وهي ترتدي المئزر، فركت يدَيها ببعضهما وقالت: "العشاء جاهز أُستاذ".

فأشار لها بأن تُدخله، عند ذاك فتحَت درفتَي الباب ودفعت المائدة المتحرّكة التي أعدّت عليها الطعام.

كان الجهد الذي بذلته واضِحاً من خلال أصناف الطعام، فقد أعدَّت أطباقاً من الكبّة النيّة، والفتّوش، والبطاطا المقلية، والفستق الحلبي، وصدر الدجاج المشوي على الفحم. مع قنينةٍ من عرق (الريّان).

حمل الدكتور عصمت الزجاجة بيده، صار ينظر إليها بشهيّة، فتحها، سكب قليلاً على يده، وسكب قليلاً على يدي، ثم سكب كأسَين ووضع فيهما قطع الثلج، رفع كأسه وقال: "لنفتتح سهرتنا الجميلة بنخب المحبة يا صديقي".

وبعد قليلٍ من الصمت ونحن نتناول الطعام، قال: "هذه الأجواء ساعدتني كثيراً في فتح صفحةٍ جديدةٍ من حياتي، أنقذتني من الموت النفسي ببطء الذي كنتُ فيه،

أحياناً الرّوتين يكون مثل الغبار الذي يتكاثر عليك حتى يقتلك. اكتشفتُ كم كنتُ بعيداً عَن نفسي وكم كانت بعيدة عنّي، كم كنتُ غريباً عن نفسي، وكم كانت غريبة عنّي.

لا يمكنك أن تعرف سلبيات الواقع الذي تكون فيه إلّا إذا خرجتَ منه ونظرتَ إليه عَن بُعد. ذاك الواقع الذي كان يمرّغك دون أن تدري، عند ذاك سيجلو لك كم كنتَ محروماً مِن نِعَم الحياة التي كانت تبدو لك صغيرة وأحياناً تافِهة".

مدّ يده إلى كاسيت، دسَّه في باب المسجّلة وقال: "عبد الوهاب لا يبدع فقط في الموسيقى، بل يبدع أيضاً في الغناء، يُغنّي بدقّةٍ دون أن يسمح لنبرة صوت، أو لنغمة أن تخرج عَن اللحن".

تناهى صوت عبد الوهاب بعد المقدمة الموسيقية: (جايين الدنيا ما نعرف ليه، ولا رايحين فين ولا عايزين إيه، مشاوير مرسومة لخطوينا نمشيها في غربة ليالينا).

قلت: "كان من المُفترض أن يغنيها العندليب، وقد تجهَّز لها، لكنه مات قبل أن يغنيها".

قال: "كلماتها قريبة من كلمات أغنية (لستُ أدري) التي كتبها أبو ماضي، وغنّاها العندليب: (جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت، ولقد أبصرتُ أمامي طريقاً فمشيت، وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت، كيف جئت كيف أبصرت طريقي لست أدري)".

ثم أردف يقول بعد لحظات: "للأسف اكتشفتُ متأخّراً يا صديقي أن أفدح خسارة يمكن أن يُمنى بِها الإنسان، هي أن يخرج مِن الحياة دون أن يترك فيها بصمةً، اكتشفتُ في هذا الوقت المتأخّر بأن الحياة دافئة وجميلة ليس بالأحياء فقط، بل بِما ترك هؤلاء العظماء مِن بصمات عليها أيضاً. لننظر إلى كل تلك المؤلّفات العظيمة، إلى كل تلك الموسيقى، الأغنيات، الأفلام السينمائيّة، كل تلك الاختراعات المذهلة، والمُكتشفات الهائلة التي قدّموها لنا كي نستمتع بِها. هؤلاء ما أبدعوا ليموتوا ويفارقوننا، بل أبدعوا كي يعيشوا ويبقوا معنا".

مسح رفوف الكتب بنظرة رضى وقال: "دخلتُ إلى رحابة عالَم القراءة الذهبي، صرتُ أعرف قيمة الكِتاب، أشرع في قراءته سطراً سطراً بكثيرٍ من التأنّي. علَّمني الكِتاب بأن الحياة ليست جميلة فقط، بل أكثر مِن جميلة، ليست بهيّة فقط، بل أكثر مِن بهيّة. صرتُ أعرف قيمة اللحظة، قيمة لقمة طعام أتناولها، شربة شراب أرتشفها، عرفتُ كم أن العطاء يُحقّق متعة أكثر مِن الأخذ، كم أن بوسع الاستماع إلى أغنية، يجعل كل ذرة فيّ تزهو وتتفتَّح.

يمكنني أن أقول لك في هذه اللحظات العظيمة بأنّني ممتلئ بالحياة، عشتُ حياة عشرة آلاف رجل في رجلٍ واحد، أشعر في هذه اللحظات الآن بأنّني أعيش أعظم لحظات حياتي على الإطلاق، وصدري مُنشرحٌ بما لم ينشرح به من قبل قط". ثم أردف يقول: "عش اللحظة يا صديقي، استمتع بها لأنّك لا تعلم ما الذي سيكون في اللحظة التي تعقبها.. ظلمتُ نفسي كثيراً بإغراقها في العمل، بإهمال القراءة، إهمال الاستماع إلى الموسيقى،

وكانت النهاية أن تحوَّلتُ إلى قاتل وأنا أعتقد بأنّني أنقذ نفسي، أدافع عن نفسي، يا له من مبرّر سخيف، كان يمكن لي أن أحافِظ على حياتها، أن أُجنّب نفسي ذاك الاعتداء الأثيم لو نظرتُ إلى الأمر بحكمة، لربما تكبّدتُ بخسائِر فادحة ماديّة ومعنويّة، لكنها لم تكن بحجم الخسارة الأفدح التي مُنيتُ بِها في اللجوء إلى القتل وإنهاء الأمر بسرعة. لكن لم تجرِ الرياحُ كما كانت تشتهي سُفُني، أحياناً تهرب مِن واقعٍ أليمٍ فتكتشف بأنّك ولجتَ في عمقه أكثر، وولج في عمقكَ أكثر، احتككتَ به أكثر، واحتكّ بك أكثر.

كنتُ جباناً، عبَّرتُ عن مدى جبني وجَشَعي من خلال ذاك الفعل الأثيم. لن يكون بوسعكَ أن تكون قويّاً إلّا بِمقدار ما تكون مُسَيطِراً على جشعك، ولن تكون واهِناً إلّا بِمقدارِ ما يكون جشعكَ مُسيطراً عليك، وعندها يستمرّ في تلويث كل موطن نقاءٍ فيك حتى يُخرجك من نقائكَ الإنساني، ويُحيلك إلى كائنٍ جَشع بامتياز".

استأنف يقول بأسى، وأنا مستأنسٌ ومُندهشٌ بالإصغاء إليه: "عندما أسمع عن شابٍ يحب فتاةً ولا يملك ما يتزوّج به، أذهب إليه وأتكفّل بنفقات زواجه. أجل يا صديقي، اكتشفتُ بأن الذي تتلوَّث يداه بقطرة دم إنسانٍ، لا يمكن له أن يعيش سعيداً، ستبقى تلك القطرة تُلاحقه وتفسد عليه حياته أينما ذهب وحيثما اتَّجه، أحاول أن أخرج عَن الواقع من خلال القراءة المتواصلة، طوال النهار، وأقضي الليل في الشرب".

ملأ الكأس الرابعة إلى ثلاثة أرباعها وأضاف الماء على الربع المتبقي، قذف فيها قطعة ثلج وقال: "كلّما كان العرق ثقيلاً وبارداً كان أطيب".

سحب سيجاراً، أشعله، نفث غمامة دخان في الأجواء وقال: "في البداية كنتُ أدخّن من علبة سجائري العادية، لكن مع الأيّام، بدت لي السيجارة صغيرة خاصّة عندما أثمل. في بعض الليالي كنتُ أشعل سيجارتَين معاً، لكن فيما بعد وجدتُ ضالَّتي في السيجار، أستمتع به وأنا أنزع عنه المُغلَّف الشفّاف".

مدَّ لي سيجاراً، فتناولته وأشعلته كما لو أنّني أشعل جذعاً من الحطب.

قال: "كل شيء فيه يختلف عن السيجارة العادية، لكن في النهار لا أستطيع أن أدخّنه، أستمتع بالسيجارة العادية وأنا أقرأ، أو أحتسي القهوة، أو حتى أمشي الهوينى في المزرعة".

طُرقَ الباب، فدخلت المرأة حاملة طَبقاً، وضعته أمامنا، فقال بلسانٍ ثقيلٍ وهو ينظر إليها بعينَيه الحمراوَين البرّاقتَين: "سلمت يداكِ يا فراقد".

قالت: "سلّمكَ الله يا أستاذ، بالهنا والعافية أنتَ وضيفك العزيز".

مدَّ يده، رفع رغيفَين من الخبز كانا يغطّيان الوجبة، فظهر الكباب فوق البقدونس المفروم والبصل.

- "تفضَّل أستاذ". قالها ومدَّ يده إلى سيخٍ، وضعه في قطعة خبزٍ مع بقدونس وبصل، وشرع يأكل بشهيَّةٍ، فحذوتُ حذوه في ذلك، كان الكباب الساخن لذيذاً وشهياً، ويبدو أنّها صنعته بخبرة.

أخذ وجه صديقي ونديمي يزداد احمراراً، بدت الكلمات تغدو أكثر ثقلاً على لسانه وأحياناً تخرج ممطوطةً، أغمض عينَيه تاركاً الكأس الرابعة في منتصفها. ضرطَ ضرطةً مسموعة، أخفض رأسه إلى الأسفل، نهضتُ إليه، طبطبتُ على كتفه، قلت: أستاذ عصمت.. بدا كما لو أنّه نائم ويقظ في وقتٍ واحد وهو يتمتم بكلمات مُبهمة لم أفهم منها شيئاً. في تلك اللحظات انفرجَت درفة الباب، دخلت فراقد، أنهضته وهي تمسك بذراعَيه، أوقفته على قدَميه فغدا يهتزّ. فتح عينَيه الحمراوين ثم عاد وأغلقهما وهو يهمهم ويتجشّأ. مضت فراقد به وبدت معتادة على وضعه في هذا الوقت المتأخّر، فكانت تتصرّف بشكلٍ طبيعي كما لو أنّها تتعامل مع طفل.

أردتُ أن أعينها، فمنعتني بيدِها قائلةً: "لا عليك أستاذ، ارتح أنت". قالتها بلهجةٍ حاسِمة، فمشى معها مترنحاً إلى بهو الطابق، أدخَلَته إلى غرفةٍ، أجلسته على السرير، سقته كأساً من اللبن الرائب، جرعَها رشفةٍ

واحدة، مدَّدته بشكلٍ جيّدٍ على سريره، غطَّته ببطانيَّةٍ وعند خروجها فوجِئت بي واقِفاً أمام الباب.

قلت: "العفو.. ماذا عليّ أن أفعل الآن؟".

ابتسمَتْ، وبعد لحظاتٍ تحوَّلت البسمة إلى ضحكة اهتزَّت معها كتفاها وقالَت: "هذه أوَّل مرة تزور الأستاذ فيها". كان سؤالاً وجواباً في ذات الوقت، فقلت وأنا أنظر إلى ترقوتَيها الناتئتَين: "نعم.. أوَّل مرة". كما لو أنني أؤيدها على ما قالت.

مشتْ إلى الغرفة التي كنا جالسَين فيها، تتبَّعتها.. جلستْ على كرسي الأستاذ، وبدأت تأكل الكباب والسَلَطة ثم صبَّت لنفسها نصف كأس من العرق.

أشارت لي بالجلوس وفمها ممتلئ بالطعام، نظرتُ إلى الساعة التي كانت مُعلّقة على الحائط، كانت تُشير إلى الثالثة والنصف قبيل الفجر.

قلتُ وأنا أتثاءب بعمقٍ: "لم أعد قادراً على مقاومة النعاس".

نهضتْ وهي تمضغ الطعام، دَعَتني كي أتبعها، نزلنا إلى الطابق السفلي، أدخلتني إلى غرفة مفروشة بعناية، تحتوي على سرير، وقالت: "هل هذه الغرفة جيّدة يا أستاذ؟".

قلت: "ممتازة".

قالَت وهي خارِجة: "تصبح على خير". فقلت: "وأنتِ بخير"، وقذفتُ جسدي على السرير وغرتُ في نومٍ عميق.

***

فقتُ في العاشرة والنصف صباحاً عندما أصدر الباب صريراً خافِتاً وممطوطاً ودخلتْ فراقد على إثره، أزاحت الستارة عن النافذة وفتحتها لتهوية الغرفة.

فركتُ عينَي وجلستُ في السرير أنظر إليها من الخلف، تذكَّرتُ لوحة سلفادور دالي (فتاة عند النافذة).

- "صباح الخير أستاذ". قالتها بإشراقةٍ وقد استدارت إليّ.

- "صباح النور".
- "أرجو أن تكون استمتعتَ بالنوم".
- "نمتُ بعمق".
- "إذا أردت، استمر في النوم أو البقاء في الغرفة".
- "هل الأستاذ عصمت استيقظ؟".
- "نعم، منذ نصف ساعة، ويتناول القهوة في البلكونة".

نهضتُ وخرجتُ من الغرفة، تناهى صوت فيروز الذي كان منتشراً بخفوتٍ في أرجاء البيت: (إذا راح تهجرني حبيبي، وراح تنساني يا حبيبي، ظل تذكرني وتذكر طريق النحل). أرشدتني فراقد إلى المغسلة وإشراقة الصباح تشعّ على صفحة وجهها، اتَّجهتُ إليها وأنا أشعر بألفةٍ غريبةٍ في البيت رغم دخولي إليه للمرة الأولى، رشقتُ وجهي بعدة رشقات من الماء، مشطتُ شعري بالمشط المبروم الذي كان بجانب المرآة المعلّقة فوق المغسلة.

مضت فراقد معي وهي تقول: "تفضل أستاذ.. على الرحب والسعة، تشرّفنا بزيارتك الكريمة".

كان الأستاذ عصمت جالِساً في البلكونة يحتسي القهوة ويدخّن، وعندما رآني، نهض، تصافحانا وتبادلنا القبلات. جلستُ على الكرسي بجانبه. كان يرتدي البرنس ويبدو بأنّه قد خرج من الحمام منذ قليل، كان وجهه مبلجاً ونقياً.

قال وهو يجول بعينَيه في الطبيعة الخضراء أمامنا: "مهما أطلتُ في السهر، اعتدتُ أن أستفيق في الثامنة، أتناول الإفطار وأشرع في القراءة، لكن اليوم هو استثنائي، أخذتُ لنفسي إجازة كي أحتفي بك يا صديقي.

ظهرتْ فراقد حاملة سفرة صغيرة عليها ركوة قهوة، وَضَعَتها أمامي، سكبتْ القهوة العابقة بالهيل في الفنجان بعنايةٍ وانصرفت.

- "ما أزال أكتشف كم أنّني أمضيتُ سنوات طويلة في جهل نفسي، كم كنتُ أعيش في غفلةٍ عَن الحياة".

قالها الأستاذ عصمت وهو يشعل سيجارةً جديدة مِن عقب سيجارة منتهية.

قلت: "لا تشغل نفسك كثيراً بالتفاصيل يا صديقي، الحياة جميلة، استمتع بِها.. أينما يطيل المرء البقاء، فإن الصدأ يبدأ بالتراكم عليه".

فتح عينَيه على سعتهما ونَظَرَ إليّ قائِلاً: "تقصد حتى هُنا؟".

قلت: "هُنا أوفي أي مكانٍ آخر من العالَم، المهم أن تتجنَّب الاستسلام للروتين اليومي".

قال: "لم أفهم عليك؟".

قلت: "تمرَّد على الرّوتين.. على نفسك.. القراءة وحدها لا تكفي رغم أهميّتها القصوى، يكمن التجدّد في السفر، في التعرف على امرأةٍ جديدة، على أصدقاء جدد، على أفكارٍ جديدة. كخطوةٍ أولى حاول أن تذهب إلى

(اللاذقية)[7]، تقيم شهراً أو شهرَين في شاليه على ساحل البحر، ثم سافر إلى بلادٍ أُخرى، قارّات أُخرى، تسكَّع في شوارع العالَم بين أناسٍ تراهم للمرة الأولى، لغات تسمعها أوَّل مرة. الذي لا يقوم ولو بجولةٍ واحدة حول العالَم، أو على الأقل حول نصف العالَم يكون قد فاته الكثير مِن إشراقات الحياة".

رشفتُ آخر ما تبقّى في قعر الفنجان وقلت: "على كل حال، أمضيتُ وقتاً ممتعاً عندك، أرجو أن تأذن لي بالذهاب".

وضع كفّه على كفّي وقال: "اقترب وقت الغداء، لن أدعك قبل أن نتغدى، وفي المساء سأتَّصل بصديقي (منهل) كي نسهر معاً.. منهل رجلٌ نادر، قرأ كثيراً ولديه أفكار غريبة، تعرَّفتُ عليه منذ عدّة سنوات في العيادة عندما كان يأتي ويشكو من خفقات متسارعة في قلبه. ثم

[7] تُعتبَر المدينة الساحلية الأولى في سورية، تقع على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط ضمن ما يشبه الجزيرة البحريّة، وكانت مأهولة بالسكّان منذ العصر الحجري.

صار يقوم بزيارات إليّ في العيادة بين فترةٍ وأُخرى، وعندما أتيتُ إلى هُنا، صرتُ أدعوه أحياناً لزيارتي".

قلت: "أشعر بأنّني اكتفيت ولستُ مهيأً للبقاء أكثر".

قال: "عدني بأنّها لن تكون الزيارة الأخيرة".

قلت: "أكيد يا صديقي سنبقى على تواصل، سأتركك في أجوائك الجميلة، وسأمشي إلى الطريق العام وأذهب بسيارة".

نهض وقال: "ما هذا الهراء، سأوصلك بسيّارتي مثلما أتيتُ بك".

قلت: "أريد أن أستمتع بالمشي في هذا المكان الجميل، وأستنشق المزيد من الهواء النقي".

نهضَ واقِفاً على قدمَيه بحيويّةٍ، اندفع صوتُه متَّجهاً إلى فراقد: "سأوصل الأستاذ وأعود يا فراقد، هل تحتاجين شيئاً؟".

ظهرت فراقد هرولةً في غضون لحظاتٍ عند سماع صوته وقالَت: "عملنا حساب ضيفنا على الغداء يا أستاذ".

نظر إليها وقال: "أقنعيه كي يتغدّى معنا يا فراقد".

فدنت إليّ وقالت مُبتسمة: "ابق معنا كي نكسبكَ على الغداء يا أستاذ، ديك رومي مُحمَّص على برغل".

قلت: "مع أن هذا الطعام نفيسٌ عندي لأن أمّي كانت تُطهيه لنا في البيت، لكن لا بدّ أن أذهب".

عند ذاك اتَّجه الأستاذ عصمت صوب السيارة دون أن يبدّل ثيابه وقال: "المسافة بعيدة، والمواصلات قليلة حتى لو تركتك تستمتع بالمشي، هيا اركب". قالها وفتح الباب الأمامي وركب، فركبتُ بجانبه، مع سماع صوت المُحرِّك، تقدَّمَ إلينا الكلبُ الذي كان يتمسّح بجذع الشجرة، تحرَّكت السيّارة فلوحتُ لفراقد بكفّي مودّعاً، لوَّحت بكفّها، بينما هرول الكلب ببدانته خبباً صوب مساحة الخضرة.

قال الأستاذ عصمت وهو يقود وسط الطريق المفروش بالأسْفَلت: "فراقد تُربّي الدواجن والأرانب في البيت، بعد نحو شهرٍ من إقامتي في المزرعة، وبينما كنتُ في السوق أبتاع بعض الاحتياجات للبيت، سمعتُ صوتاً يناديني: "دكتور عصمت..".

استدرتُ، فتقدَّم إليّ شخصٌ يرتدي ثياباً عليها بعض بقع الشحوم، قال وهو يلهث: "أنا مريضك هشام يا دكتور، هل تذكَّرتني؟".

خمَّنتُ بأنه جرى بعض الخطوات حتى لحق بي وقلت: "نعم.. تذكَّرتك".

قال وهو يستردّ أنفاسه: "لدي دّكان لتصليح الدرّاجات الهوائيّة هُناك". و أشار بيده إلى ركنٍ من الشارع، ثم أضاف يقول: "كنتُ أصلح درّاجةً وفجأة رأيتك تمشي، فتركتها وجئتُ راكضاً إليك لأقول لك بانّني ذهبتُ إليكَ في العيادة مرّات عدَّة، ولم أجدكَ، أرجو أن تكون بخيرٍ يا دكتور؟".

قلت: "استقلتُ من الطب وابتعدتُ عن المدينة كلها، وأقيم حالياً في مزرعة".

أمسك ذقنه بيده، صمتَ للحظات كأنه فكَّر بشيءٍ ما وقال: "ألا تلزمكَ خادمة تقوم بخدمتكَ في المزرعة يا دكتور؟".

فوجئتُ بِما سمعت، وكانت قد خطرت لي الفكرة سابِقاً، لكن لا أعرف لماذا استبعدتها، فقلت له: "هل هي مكفولة ولا مشاكل لديها؟".

قال: "تعجبك كثيراً يا دكتور، وبكفالتي". ثم ركن إلى الصمت للحظات وقال: "بصراحة يا دكتور هي ابنة أبي".

قلت: "كيف..؟".

قال: "هي أختي من أمٍّ أُخرى غير أمّي، تزوَّجتْ وبعد خمس سنواتٍ من زواجِها تطلَّقت وجاءت تسكن معي".

اعتراني شعورٌ بأنّه يريد بذلك أن يتخلَّص من خلافاتٍ تنشب بينها وبين زوجته في البيت، فقلت: "لا بأس يا هشام، اجلبها إلى المزرعة حتى أراها، وترى هي أيضاً

طبيعة العمل". ثم أرشدته إلى العنوان، وكتبتُ له رقم هاتفي على ورقةٍ وقلت: "قبل أن تأتي اتَّصل بي على هذا الرقم".

لم يتأخَّر كثيراً، فبعد يومَين هاتفني وأتى بِها إلى المزرعة، بدت لي امرأة مُريحة، لأنّني كنتُ بحاجةٍ إلى كل عوامل الراحة، وأتجنَّب الاستفزاز، فأنا طبيب مختصّ بأمراض القلب، وأعرف بأن توتّر نصف ساعة يمكن له أن يلحق بالإنسان ما لا يلحقه به عشرون سنة من التدخين والكحول بمعدَّل تدخين علبة دخان وشرب كأسَين من الكحول كل يوم. وكذلك فإنَّ قلبُك ينتعش عندما تنظر إلى وجهٍ جميل، وتسمع كلمات عذبة.

راودني شعور بأنّها المرأة المطلوبة للقيام بهذه الوظيفة، قلت في قرارة نفسي: "لأضعها تحت الاختبار وهي التي ستُحدّد إن أبقيها، أو أصرفها". هناكَ أناس يسيئون الظن في البداية بالشخص حتى يثبت العكس، وأناس يُحسنون الظن بالشخص حنى يثبت العكس، أنا

أميل إلى الزمرةِ الثانية. فقلتُ لها في اليوم الأوَّل لعملِها: "لن تكونين خادمة يا فراقد، ستكونين موظّفة في منزل".

قالَت: "أتشرف بخدمتك يا دكتور..".

قلت: "بعد الآن لا تقولي: دكتور. قولي: أستاذ".

قالَت: "حاضر..".

كانت بحاجةٍ إلى وقتٍ حتى تنسجم مع طقوسي، وأيضاً حتى يتغيَّر مفهومها عَن الشرب، كانت في البداية تبدو مرتبكة عندما تراني أشرب، وتكون على حذرٍ شديدٍ منّي.

ولكنها ذات يومٍ وأعتقد بعد نحو شهرَين مِن عملِها، قالت لي: "كنتُ أعتقد بأن الذي يشرب يتحوّل إلى مجرم، وأنتَ أثبتَّ لي العكس يا أستاذ، عندما تشرب يظهر طيبكَ أكثر".

قلت: "قد لا أكون أثبتُّ لك العكس يا فراقد، بل أنَّ مفهومك هو الصحيح، لأن الشرب يمحق الزيف ويُظهر الإنسان على حقيقته رغماً عَن أنفه. فإذا كان عدوانياً فإن

عدوانيته تظهر أكثر وتفصح عَن نفسها عندما يثمل، ولا يمكن له أن يواريها مهما حاول. وإذا كان طيّباً، فإن طيبه يظهر أكثر عندما يثمل، وتفصح عن نفسها رغماً عَن أنفه".

مع الأيّام غدت أنيستي، ونديمتي، وأصبح وجود المزرعة مقترناً بوجودها فيها، ولا تطلب إجازة إلّا نادراً تذهب إلى بيت أخيها، تمضي يوماً وتتصل بي كي أُعيدها. أحياناً عندما تراني مُستغرقاً في القراءة، تجلس على الأريكة، تقول وهي تنظر إلي: "ليتني أجدتُ القراءة يا أستاذ، لقرأتُ كل هذه الكتب، لكن ماذا أفعل..؟ مات أبي وأنا في بطن أمّي، وعندما تزوَّجَتْ أمّي، لم يُدخلني زوجُها إلى المدرسة، لا أعرف شيئاً سوى الأرقام، تعلَّمتها بعد أن تزوَّجت كي أجيد الاتّصال بالهاتف".

بعد قليل تابع يقول وهو ينظر أمامه ويقود: "أمرٌ غريبٌ اكتشفته فيها يا صديقي وهو أنّها رغم أمّيتها، تتمتَّع بنظراتٍ ثاقبة وقوَّة شديدة في الملاحظة.. عندما كانت تتحدَّث لي عَن هذا الأمر، كنتُ أظنّها تُبالغ، كانت

تقول: "أستطيع أن أنفذ إلى أعماق الشخص بمجرَّد أن أنظر للحظاتٍ إلى وجهه، أو أستمع إلى صوته دون أن أراه، نبرات الصوت تفصح لي عن ذلك". ولكن عندما قالت: "أستطيع أن أنفذ إلى شخصيّة الإنسان حتى من خلال النظر إليه من الخلف للحظات، إذا لم أتمكَّن من رؤيته من الأمام". وكانت واثِقة من نفسها وهي تقول ذلك، خطر لي أن أمرّرها ببعض التجارب فهاتفتُ شخصاً سيّئاً وفتحتُ مكبّر الصوت كي تسمع، ثم هاتفتُ شخصاً جيّداً، وبعد أن استمعت إليهما وهما يتحدَّثان معي في الهاتف، فعلاً يا صديقي، استطاعَت أن تُميِّز بين السيّء، وبين الجيِّد رغم أنّني تحدثتُ معهما في موضوعٍ واحدٍ وباختصار. ثم كرَّرتُ ذلك على أشخاص عدَّة، فكانت ذات النتيجة التي أدهَشَتني، لكنّها ذات مرةٍ قالت عن شخص جيّد بأنّه سيّء بعد أن استمعت إلى صوته، فقلت لها: "الآن ما أصبتِ يا فراقد".

قالَت: "بل أصبت يا أستاذ".

قلت: "هذا شخص فاضل معروفٌ عنه الطيب".

قالت: "بل هو لئيم وماكر، لا توله ثقتك، نبرات صوته قالت لي في لحظات ما لم تقله لك علاقتك الطويلة به".

وحصل هذا أيضاً مع أشخاصٍ آخرين عندما بدأتُ أصحبها معي إلى بعض الأماكن وأجعلها تنظر إلى وجوههم، أو تنظر إليهم من الخلف".

قلت: "هذه فراسة لا علاقة لها بتعليم الشخص أو أمّيته".

قال: "سألتها ذات مرة: وأنتِ تقفين قبالة شخص قد تتوسَّمين فيه أشياء، لكن كيف يحصل ذلك وأنتِ تنظرين إليه من الخلف دون أن تري وجهه قط؟!".

قالت: "منظر الرأس من الخلف، منظر الرقبة، تركيبة الكتفَين، تنسيق الظهر، الساقَين، المؤخّرة، حتى الثياب التي يرتديها، كل هذه العوامل تبثّ إليّ إشارات، سواء أكان رجلاً أم امرأة".

ثم قالت بأنَّ هذه الخصلة أحياناً تسبّب لها الإشكالات مع بعض الناس، وعندما سألتها: "كيف تُسبّب لك الإشكالات يا فراقد؟!".

قالت: "أحياناً ترى شخصاً يُحاربك بكل ما لديه من أساليب قذرة، يستغل كل مواطن قوته ونفوذه ليُحاربك بها، أو يمنع عنك خيراً يمكن أن يُصيبك، ويستغل كل مواطن ضعفك لينال منك بها، لا لشيءٍ، فقط لمجرَّد أنّه أدرك بأنّك استطلعتَ حجم ما هو عليه من قذارة ولو من خلال نظرة نافذة سريعة إليه، نظرة واحدة لثوانٍ لا غير دون أن يكون سبق لك أن رأيته أو رآك، أو سمعت به، أو سمع بك".

فوجئنا بسيّارة تكسي مقلوبة على حافَّة الطريق، وحولها بعض السيّارات واقفة مع سيّارة شرطة النجدة، وبعض الناس التمّوا حولها، تمهَّل قليلاً ونحن ننظر، واستأنف المسير من دون أن يقف وقال: "كل هذا حصل لهذه السيّارة ومَن فيها نتيجة خطأ في ثانية واحدة بدرت من السائق".

ثم عاد يكمل حديثه عَن فراقد وقال: "لكن الصدمة التي أحدثتها لي فراسة فراقد كانَت عندما زارتني ابنتي الوحيدة (ياسمين) مع زوجِها وابنهما حفيدي الوحيد

(شادي)، حينها لمحتُ علامات عدم الارتياح على قسمات وجه فراقد، وكانت المرة الأولى التي ترى فيها زوج ابنتي، كانت مُحتقِنة جدّاً وهي بين حينٍ وآخَر تحدجه بنظراتها. والذي لفت نظري أكثر أنه أيضاً لم يكن مرتاحاً لوجودِها في البيت، ولم يخفِ مشاعره، بل قال لي: "يا عمّي أرجو أن تكون على حذر من هذه المرأة، قد تجلب لك إشكالات أنتَ في غِنى عنها. فَتَح الله عليكَ بنعمة الثروة، والطمع يعمي صاحبه، ربما تقوم بتصرّفٍ ما، فترى نفسكَ وقعتَ في معضلةٍ لا تستطيع الخروج منها".

تجاهلتُ ما قاله واعتبرتُ نفسي لم أسمع شيئاً، فأمضوا النهار كله في المزرعة، وعادوا قبيل الغروب إلى البيت.

عندما أعدَّت فراقد لي مائدة السهرة ككل يوم، طلبتُ منها أن تجلس معي، فجلست على كرسيٍّ دون أن تتكلَّم بشيءٍ وهي بين لحظةٍ وأُخرى ترمقني بنظرةٍ، خيَّم علينا

صمتٌ امتدَّ نحو نصف ساعة دون أن ينطق أحدنا حرفاً واحداً، ونحن نتناول المقبّلات.

صبَّت فراقد لنفسها كأساً من العرق، وغدت ترتشف منه بتُؤَدةٍ، وتدخّن من علبة دخانها (الكينت) البيضاء الطويلة. كانت عندما باشرت في العمل، تدخّن نوعاً رديئاً من السجائِر، وذات يومٍ عندما نفدت علب الدخان التي كانت قد جلبتها معها، طلبت منّي أن أجلب لها معي من السوق دخاناً، فجلبتُ لها هذا النوع وقلتُ: "هذا أفضل لك يا فراقد".

قالَت: "لكنّه يا أستاذ باهظ الثمن، وهو دخان الأكابر، لا مقدرة لي عليه".

قلت: "أدخلتُ لك الدخان ضمن الطعام والشراب، دون أن أخصمه من راتبكِ الشهري".

قالت: "أشكرك جداً يا أستاذ، ولكن لماذا تكلّف نفسك؟ أنا اعتدتُ على تدخين سجائر (الناعورة) الرخيصة، وأحياناً لم تكن تتوفّر لي إلّا بالكاد بسبب ضيق يد أخي".

رشفت فراقد رشفةً من كأسها التي أوشكَت أن تفرغ، وسحبتْ سيجارةً جديدة من علبة الدخان، علَّقتها في وسط فمها، أشعلتها بطقّةٍ من القداحة، استمتعتُ بلحظات التأمّل تلك وأنا أنظر إليها وهي جالسة قبالتي تنفث الدخان وتمسك السيجارة بمقدمة أصبعَيها.

رفعتُ كأسي وقلت: "بصحّتكِ يا فراقد".

رفعتْ كأسها وقالت: "بصحّتك أستاذي".

عندها أدركتُ بأن الوقت بات مُناسِباً كي أتحدَّث معها عمّا قالته لي بشأن زوج ابنَتي، فقلت: "أعتقد بأنكِ كنتِ مضطربة عندما كان (ماهر) هُنا".

قالت: "شعرتُ بوخزةٍ في قلبي عندما وقعتْ نظراتي على وجهه، أردتُ أن أتأكد أكثر، فعاودتُ النظر، لكن في كل مرة كنتُ أتأكد أكثر من مشاعري التي أرجو ألّا تكون صائِبة يا أستاذ". ثم أردفت تقول بعد قليلٍ من الصمت: "هل زارك هُنا قبل الآن يا أستاذ؟".

استغربتُ لسؤالِها الغريب وقلت: "زارني مرة واحدة، وهذه كانت الثانية، لكن تأتي ابنتي مع حفيدي بين فترةٍ

وأُخرى لأنّه يكون مُنشغلاً. وعلى كل حال هو بشكل طبيعي منذ زواجه منها لم يكن يزورنا في بيتنا السابق إلّا قليلاً، أو في بعض المُناسبات".

أوشكنا على الوصول إلى البيت، فقال: "بعد ذلك بدأتُ ألاحظ أنّه بات يكثر من مجيئه مع ياسمين وشادي، وفي كل مرة يطلب منّي أن أصرف فراقد من العمل. ذات مرةٍ وقع شجارٌ حادٌ بينها وبين ابنتي، وعندما استفسرتُ عَن السبب قالت لي: "بابا.. هذه الخادمة اللعوب بلا أخلاق، اصرفها فوراً، صرتُ أخاف عليكَ منها".

قلت: "لماذا يا بنَتي؟".

قالت: "تريد أن تغري زوجي بحركات مثيرة حتى بلغ بها الأمر أن طلبتْ منه أن يدخل إلى غرفتها خلسة في الليل بعد أن يطمئن على استغراقي في النوم. لكنه وبّخها وأخبرني بذلك".

بعد أن عادوا إلى بيتهم، قالَت لي فراقد والدموع تملأ عينَيها: "أرجو أن تأذن لي بترك العمل يا أستاذ، لأنّني لا

أُريد أن أتسبّب بشقاقٍ بينك وبين ابنتك، وأنا أعلم كم أنك متعلَقٌ بحفيدك، هجمتْ عليَّ فجأةً وشدَّت شعري، لكنّني لم أردّ عليها احتراماً وتقديراً لك يا أستاذ، ولو لم تكن ابنتك لمرَّغتها في الأرض ولما تركتُ شعرةً في رأسِها".

نظرتُ إلى آثار الخدوش على وجهها، مددتُ يدي، صرتُ أجفّف دموعها، ضممتُ رأسها إلى صدري لأوّل مرة، ثم لأول مرة طبعتُ قبلةً على ظاهر كفّها".

وصلنا إلى البيت وأنا أرغب أن أعرف ما حصل بعد ذلك خاصّة وأنّني أعلم بأن ياسمين تطلَّقت من زوجِها. أصررتُ عليه أن يدخل، يجلس قليلاً، نحتسي معاً القهوة، لكنّه اعتذر وقال بأنه سيمرّ على ابنته في الجريدة التي تعمل فيها مدقّقة لغوية، ويأخذها مع حفيده إلى المزرعة ليقضيا يوم غدٍ الجمعة عنده لأنّه عطلتها الأسبوعية.

الفصل الرابع

أدخلتُ المفتاح بشوقٍ في قفل الباب، راودني شعورٌ كما لو أنّني غبتُ عن البيت سنة كاملة وعدتُ إليه تواً، كان الهاتف يرنّ في الداخل، مددتُ خطواتي، أحسستُ بأنّني دخلتُ إلى دفء مكانٍ ألفته وألفني، مكانٍ يخصّني وحدي وليس لأحدٍ فيه شيء غيري، إنه مملكتي التي أستطيع أن أفعل فيها كل ما أُريد بحريّة تامّة.

اتَّجهتُ إلى الهاتف، حملتُ السماعة على الفور، فاندفعَ صوت إلهام بلهجةٍ يشوبها القلق: "أين كنت..؟! منذ البارحة وحتى الآن حطّمتُ الهاتف وأنا أرنّ لك، لم أنم لحظة واحدة".

قلت: "زرتُ أحد أصدقائي في مزرعته، سهرنا حتى وقتٍ متأخّر من الليل واضطررتُ للنوم هُناك".

تنفسَّتْ الصعداء وقالت: "لا يعنيني كل هذا، المهم أنتَ بخير".

قلت: "بخير، كان تغييراً جيّداً للروتين اليومي".

قالت: "حسناً فعلت، خذ بالك مِن نفسك".

قلت: "ولا يهمّك.. أنتِ أيضاً خذي بالك من نفسك. وأغلقتُ الخط".

جميلٌ أن ترى في هذا العالَم مَن يهتمّ بك، غير أمّك، يقلق عليك.. يفتقدكَ إن غبتَ عنه ولو يوماً واحِداً، يحنّ إليك، إلى الحديث معك، يبقى على تواصلٍ معك، يُشعركَ بأنّك جزءٌ منه وأنَّه جزءٌ منك. ألقيتُ بجسدي على رحابة السّرير، شرعتُ ذراعَي: ياه.. كم أن الحياة واسعة، وكم أنَها ضيّقة في الوقت ذاته، كم أنها مؤنسة، وكم أنها موحشة في الوقت ذاته أيضاً. اشتقتُ لسماع أغنية، مددتُ يدي إلى المسجلة، وقع نظري على كاسيتٍ لـ (فرانك سيناترا) من بين مجموعة الكاسيتات. وضعته في باب المسجلة، ضغطتُ على زر التشغيل، أخذتْ الأغنيات الهادئة مع الصوت الرخيم تنبعث بخفوتٍ وتتداخل مع الصمت.

قفزتْ صورة إلهام إلى مُخيّلتي، إلهام بكل حساسيتها المُرهَفة، ولذلك أحياناً عندما نكون معاً، أتخيَّل بأنّني

أكون مع فَراشَة، بل وأحياناً عندما أحادثها في الهاتف، أتخيَّل بأنّني أُحادث فَراشَة.

قالت لي في إحدى لقاءاتنا في مقهى (الهافانا)[8]: "لا أعرف ماذا أُريد، أشعر بأنّني مُشتّتة، أريد أن أذهب إلى مكانٍ، لا أعلم أين هو، أريد أن أكتب شيئاً، لا أعرف ما هو، أن أفعل شيئاً، لا أعرف ما هو، أريد أن أرى شخصاً، لا أعرف مَن هو، أن أقرأ كتاباً، لا أعرف ما هو، أن أستمع إلى أغنيةً، لا أعرف ما هي".

لبثتُ مُسترخياً حتى المساء بين الغفوة واليقظة، ثم نهضتُ، أعددتُ إبريقاً من الشاي، وتهيّأتُ لكتابة مقالة عن (رسائل إلى ميلينا) التي قرأتها مؤخّراً كي أرسلها إلى الجريدة التي أكتب فيها. سحبتُ أوراقاً بيضاء من ماعون الورق، هيّأتُ مظروفاً كي أدس المقالة في جوفه وآخذه غداً إلى مبنى البريد، أبتاع طابعاً بريدياً مِن الموظَّف،

---

[8] مقهى ثقافي عريق في دمشق، افتُتِح سنة 1945، يقع وسط مدينة دمشق، قريب من سوق الصالحيّة، يلتقي فيه الأدباء والفنانون سواء من السوريين، أو مِن الذين يتوافدون إلى سورية.

ألصقه على المظروف وأضعه في فم عبوة البريد الخارجي، ثم أتَّجه إلى ركن الصناديق البريديّة، أفتح صندوقي كي أرى إن كانت وصلتني رسائل عادية، أو إشعارات بوصول رسائل مضمونة التي على الأغلب تحتوي على شيك بقيمة استكتاباتي.

كتبتُ سطراً، شطبته، كتبتُ آخر، شطبته، كتبتُ أسطراً عدَّة، شطبتها. يبدو أن كلمات إلهام تركتْ أثرها عليّ فلم أعد أعرف ما الذي سأكتبه، أمضيتُ نحو أربع ساعات، تراكمتْ حولي الأوراق المُكرمشة، ولم أكتب شيئاً.

استحضرتُ صورة (كافكا)، نظرتُ إلى صورة (ميلينا): هذه هي المرأة التي سَحَرتْ كافكا، فجَّرت في أعماقه كل تلك الطاقات المخزونة من الحب، حدَّقتُ في كل ملمحٍ من ملامح وجهها، في نظرات العينَين، في حجم الفم، في الأنف، في الحاجبَين، في الجفون، في الجبهة. المرأة التي قال لها: (إنكِ توجدين هنا، مثلما أنا هنا، إن وجودكِ مؤكّد أكثر من وجودي، إنكِ تكونين حيث أكون،

وجودكِ كوجودي، وأكثر كثيراً من وجودي في الحقيقة.. أنتِ يا ميلينا لو أحبكِ مليون فأنا منهُم، وإذا أحبكِ واحدٌ فهذا أنا، وإذا لم يُحبكِ أحدٌ فاعلمي حينها أنّي مُت.. إني أُغلق عيني لأنظر في تلك الأعماق، فلا أجد نفسي إلّا وقد أبحرتُ فيكِ.. أخاف الأشياء التي تُلامس قلبي يا ميلينا، لِذا أهرب منها دائماً، وأهرب منكِ).

هذه الرسائل عرَّفتني على شخصيّة كافكا بشكلٍ أفضل، أدخلتني إلى عالم أعماله على نحوٍ أعمَق. كذلك عرَّفتني بشخصيّة ميلينا التي كانت مهووسة بقراءة كتاباته وكانت تترجمها إلى التشيكيّة. كانت تتذوَّق تلك الأعمال الروائية التي تقرأها وتقوم بترجمتها بدقّةٍ، وتستكشف أبعاد شخصيّة كافكا التي هَيمَنت عليها بقوَّة، فقالت: (لقد عرفتُ قلقه قبل أن أعرفه). تخيَّلتُ خروجه من البيت كالمجنون، والذهاب إلى (فيينا) للقاء ميلينا وقضاء أربعة أيامٍ حميميَّةٍ معها، تخيَّلتُ كيف أنّه ضمَّها إلى صدره بقوَّة، وضمَّته إلى صدرها بقوَّة، ما قاله لها في ذاك اللقاء الحميمي، وما قالته له.

عندما بلغت الساعة الثانية عشرة والنصف، عادت صورة إلهام ترفرف أمام ناظرَي في الغرفة، تمنيتُ لو أسمع نبرةً من صوتها، خطر لي عندما نلتقي أن أطلب منها تسجيل لي أي شيءٍ تقوله، كأن تدندن مثلاً بأغنية، أو تقرأ قصيدة جديدة كتبَتها، أو توجّه لي كلاماً، وأن تعطيني صورةً لها كي تبقى بالقرب منّي، أنظر إليها، أبحر في تلك العينَين، أستحضرها، أقبّلها، تحدّثني، وأحدّثها، نسمع معاً الموسيقى، الأغنيات، نحلم معاً، نخطّط لحياةٍ سوف نعيشها معا.

أدركتُ في تلك اللحظات أكثر من غيرها كم أن الإنسان يحتاج إلى الإنسان، كما أنّ حياته تكون فارغة دون الإنسان. خطر لي أن أتّصل بِها، لكن توقَّعتُ أن أباها أو أحد أخوتها سيردّ، ولن أجرؤ على الحديث. بعد نحو نصف ساعة من التردّد، رفعتُ السمّاعة السوداء، وضعتها على أذني، فاحت رائحة الهاتف منها، أقول (رائحة الهاتف) لأن تلك الرائحة لم أشمّها من أي شيء آخر غيره. أدرت القرص بسبابة اليد الأخرى وفق الأرقام

التي حفظَتها ذاكرتي، تناهى إلى سمعي رنينٌ وقبل أن يكتمل فصلتُ الخط.

بعد نحو ربع ساعةٍ دوى الرَّنين وملأ صمت الغرفة، نظرتُ إليه، تذكَّرتُ أنني قرأتُ في إحدى الصحف خبراً مفاده أن بعض الدول في العالَم لديها أجهزة هاتف تُظهر رَقْم المُتَّصل على شاشةٍ معدّة لهذه الغاية في جهاز الهاتف، وكذلك هناك صوتُ آلي يَصدر مِن الجهاز تلقائيّاً يقرأ رقم المتّصل، وعلى الرغم من أن الأمر بدا غريباً لي، وددتُ لو كان موجوداً في هاتفي، لعرفتُ الرَّقْم الآن.

مددتُ يدي، رفعتُ السماعة، وضعتُها على أذني، تناهت نبرة صوت إلهام بخفوتٍ شديدٍ: "ألو..".

قلت: "إلهام..".

قالت: "أخفض صوتك، تحدَّث مثلي، منذ قليلٍ رنّ جرس الهاتف، كأنّ نداءً في داخلي قال بأنّه منك. نهضتُ من فراشي، جلبتُ جهاز الهاتف إلى غرفتي، أتحدَّث

معك من تحت اللحاف وقد أحكمتُ مزلاج الباب جيداً".

قلت: "نعم كنتُ أنا..".

قالت: "هل تريد شيئاً؟".

أربكني السؤال، والتزمتُ الصمت.

قالت: "هل تسمعني؟".

قلت: "خطرتِ في بالي، ولا أعرف لماذا اتّصلتُ بك. لكن كيف عرفتِ بأنّني اتَّصلت؟!".

قالت: "راودني هذا الشعور رغم أنها المرّة الأولى التي تفعلها في مثل هذا الوقت المتأخّر من الليل".

بعد قليلٍ من الصمت، أردفتْ تقول بهمسها الخفيض: "البارحة قرأتُ إعلاناً في السوق بأن فيلم (وداعاً للأمس) لعمر خورشيد موجود في سينما (راميتا)، تعرف كم أن هذا الرجل يسحرني، فرصة لا تعوَّض كي نُشاهده معاً ما رأيك؟".

قلت: "فعلاً فرصة لا تعوَّض، أظن أن (إغراء) تُشاركه البطولة فيه".

قالت: "نعم".

قلت: "أذكر بأنّني قرأتُ عَن الفيلم في مجلة (الموعد)، لكن لم أشاهده".

قالَت: "أتمنّى أن أشاهد كل أفلامه وكل البرامج التي ظهر فيها، وكذلك أفلام عبد الحليم، تُرى هل سيأتي وقتٌ أشاهد فيه كل تلك التحف الفنية الذهبية التي فاتتني؟". ثم استطردَت تقول بغصّة: "أية يدٍ أثيمة تلك التي استطاعت أن تقتل تلك البراءة الإنسانية الجميلة وهي في عزّ شبابها وعطائها.. موته جرح من الصعب أن يندمل في قلبي، لو مات موتاً طبيعياً لكان الجرح أخف، مثل موت عبد الحليم مثلاً".

قلت: "عصر الغد سأنتظرك أمام باب السينما، سنحضره في حفلة العصر ما رأيك؟".

قالت: "غداً سأذهب مع أمّي إلى بيت أهلها وسنمضي يوماً هناك، بعد غدٍ نلتقي في الموعد نفسه".

قلت: "اتفقنا.. أكيد عندما نُشاهِد الفيلم معاً، ستكون المُشاهدة مُمتعة أكثر".

***

هاتفني الأستاذ عصمت وقال: "نزلتُ اليوم إلى السوق، قضيتُ بعض أعمالي، والآن فرغت، إن لم تكن مشغولاً، أو مرتبطاً بموعد سوف أزورك".

قلت: "مرحباً بك يا صديقي، تفضَّل".

قال: "سأجلب معي غداءً وبيرة".

قلت: "كما تُريد".

كانت الساعة قد بلغت الواحدة والنصف ظهراً، وكنتُ قد رتَّبتُ لتناول علبة طونٍ مع شرائح البندورة لوجبة الغداء بعد الانتهاء من كتابة المقالة الجديدة عن رواية (حكاية الجارية). الرواية التي سَحَرَتني منذ صفحاتها الأولى، وقرأتها مرَّتين مُتتاليتَين، فانتابني شعورٌ بأن كتابة رواية جيّدة واحدة في دولةٍ، أهم من إشادة بناء من مئة

طابق فيها، الرواية تؤسّس للإنسان، والبناء يؤسّس لسَكَنه.

ويمكن أن يزول البناء بعاصِفةٍ أو حرب، لكن لا يمكن للرواية أن تزول بعواصف أو بحروب.

شرعتُ البارحة بكتابة المقالة حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل، ونمتُ عندما أثقلَ النوم جفوني على أن أتممها اليوم. أحسستُ بأنّني لم أعد قادِراً على الكتابة وأن ذهني بات مشغولا بمجيء عصمت. لبثتُ جالِساً أشرد به حتى سمعتُ رنين جرس الباب، فنهضت، استقبلته، تباوسنا، دخل مُبتسِماً وهو يمدّ نظراته إلى أرجاء الغرفة، كان يحمل بيدَيه كيسَين، وضعهما على المائدة ولبث واقِفاً، قال: "لم أكن بشوقٍ لك فقط، بل بشوقٍ كي أرى الطقوس التي تعيش وتكتب فيها أيضاً".

قلت: "البيت مؤلَّف مِن غرفتَين ومطبخ". مضينا إلى الغرفة الأُخرى التي كانت تحتوي على سرير النوم، ثم إلى المطبخ، وأشرتُ له إلى باب صغير وقلت: "هناك يوجد حمام ودورة مياه".

قال: "المهم أن تكون مُرتاحاً فيه".

قلت: "لا بأس به، الحارة شعبية وهادئة، فيها أمانٌ كبير".

قال: "تفوح من هذه الحارة رائحة الماضي، كان لي مريضٌ من الأثرياء هُنا، أحياناً كان يتَّصل بي ويستدعيني في أوقاتٍ متأخّرة من الليل عندما يشعر باضطراباتٍ مُفاجِئة في قلبه".

قلت: "عندما رأيتُ البيت، شعرتُ بارتياحٍ فيه، فوافقت على استئجاره".

اتَّجه إلى المغسلة، غسل يدَيه بالصابون، ألقى نظرةً إلى وجهه في مرآةٍ مغبشة مثلومة الزاوية مثبتة في أعلى المغسلة، ثم عدنا إلى المائدة، خلع جاكيته الشمواه ذي اللون البيج الفاتح، ألبسه على خلفيَّة الكرسي الذي جلس عليه وقال: "معك حق، البيت فيه أُنس، أحياناً أدخل بعض البيوت، لا أرتاح فيها، وأستعجل الخروج، وبعض البيوت، أشعر براحةٍ فيها فأطيل البقاء ما أمكنني وأنا مُستأنس. مع تكرار هذه العمليّة، ترسَّخ لديَّ اعتقادٌ

بأن المكان الذي تستأنس فيه، هو الآخر يستأنس بك، والمكان الذي تنفر منه، هو الآخر ينفر منك".

فتحَ أحد الكيسَين وأخرج منه عبوتَي بيرة عيار 10، ثم فتح الآخر وسحب منه دجاجة مشوية مع سلطة ومخلّل الخيار، وشرائح البطاطا المقلية، إلى جانب أرغفة خبز بعضها مدهون بالمحمَّرة.

شرعنا نتناول الطعام ونحتسي البيرة الباردة، كان يأكل بشراهة وبعد قليلٍ قال بمقدار ما يسمح له فمه الممتلئ بالطعام أن يتحدّث: "ألم تخرج من البيت اليوم؟".

قلت: "لا.. كنتُ بصدد كتابة مقالة جديدة".

قال: "يبدو بأنّني قطعتكَ عن عملك".

قلت: "لا.. أجَّلتُ كتابتها إلى الليل، شرَّفتني وشرَّفتَ بيتي المتواضع، ثم طلبتُ منه أن يكمل حديثه عَن ماهر، لأنّه أصبح لديَّ فضول بأن أعرف سبب طلاق ابنته مِن جهة، ومِن جهةٍ أُخرى ما آل إليه تحذير فراقد له ماهر.

فقال: "بعد حادثة الشجار تلك يا صديقي التي نشبت بين ابنتي وبين فراقد بنحو شهرٍ، حلَّ عيد الأضحى، فجاء ماهر مع ابنتي وحفيدي صباحاً، لبث بضع دقائق واستأذنني بالذهاب لمعايدة أهله وأقربائه على أن يعود مساءً ويمضوا الليلة عندي.

احتفيتُ بوجود ابنتي وحفيدي في تلك الطقوس العيدية، طلبتُ من ابنَتي بصيغة الأمر ألّا تصطدم مع فراقد استجابةً لرغبتي، فوعدتني بذلك.

مشينا معاً في المزرعة، ورافَقَنا الكلب في مشوارنا، وكانت فراقد منهمكة في إعداد الغداء.

الحفيد شيءٌ غريب يا صديقي، أشعر بأنّه جزءٌ منّي، وجزءٌ من ابنَتي، وجزءٌ من زوجتي. كل هذه الأجزاء اجتمعَت فيه، أعتقد بأنّه لا يوجد أغلى مِن الحفيد، إنه صغير صغيرك الذي كبر، هو الوحيد الذي يتيح لك أن ترى طفولة طفولتك فيه. لا يوجد كائنٌ يمكن له أن يبثّك هذه المشاعر سوى الحفيد، الحفيد وحده ولا أحد غيره، عندما أحمل حفيدي، يتداعى إلى مُخيّلتي كيف

أنّني كنتُ طفلاً، ثم صرتُ يافِعاً، ثم شابّاً، ثم رجلاً، ثم أباً، ثم جدّاً، كل هذه المراحل عشتها بطولِها وعرضِها، عشتها بنجاحاتِها وإخفاقاتِها، بحلوها وبمرِها، بتقلّباتِها واستقرارِها، بهدوئها وسكينَتها.

عندما بدأت أشعة الشمس تخبو تدريجياً، كنّا جالسين على الكراسي في فسحة مقدّمة البيت. قالت ياسمين: "جاء ماهر".

نظرنا إلى الطريق، كانت سيّارته تمشي في كبد الطريق وتتقدَّم إلينا، عندما تزوَّجتْ ياسمين، اشتريتُ لها بيتاً وسيارة وسط المدينة وقدمتهما هديةً لها بمناسبة زواجها.

أعدَّت لنا فراقد بهذه المناسبة مائدة عشاء مميَّزة بذلتْ فيها جهداً كبيراً، كانت ليلة حافلة وممتعة. قُبيل منتصف الليل، قالَت ياسمين وقد بدا النعاس يثقل جفونها: "لم أعد قادرة على السهر أكثر". ونهضتْ خارجةً إلى الغرفة المخصّصة لها ولزوجها في الطابق السفلي.

تجشأ ماهر وقال: "أنا لي قابلية على السهر إن كانت لك قابلية أيضاً يا عمّي؟".

قلت: "لنسهر.. فمدَّ يده إلى زجاجة العرق، ملأ كأسي التي كانت قد فرغت، ولكن لا أخفيكَ بأنّني لم أكن مُرتاحاً بالسهر معه خاصَّةً بعد ذهاب ابنتي كي تنام، لكن زوج الابنة أيضاً له منزلة شديدة الخصوصيّة مهما كانَت مشاعرك نحوه، فهو الذي تسبّب في إهدائك الحفيد، وهو الذي أودعته فلذة كبدك، وهذه التحوّلات يا صديقي هي بمثابة الزهور الفوّاحة على طريق الحياة، وهي تُجمّل للمرء حياته وتجعلها غنية وخصبة، ولذلك أعتقد أن على المرء أن يُكافح حتى يتزوَّج وتشرق حياته بالأبناء، وتغتني بالحَفَدة.

هززتُ رأسي وأنا أصغي إليه بإنصاتٍ شديد، فغرز الشوكة في جزءٍ من صدر الدجاجة، اجتزَّ قطعةً، وأردف يقول وقد ترك قطعة اللحم في الشوكة بيده: "أذكر أنّه ضحك ضحكة تشبه البُكاء وسكب لي الكأس الرابعة وشربتها كاملةً، وكان ما يزال في كأسه الأولى".

وضع اللحم في فمه وقال وهو يستمتع بمضغه: "لا أعرف بعد ذلك ماذا حصل.. في مثل هذه الأوقات اعتادت فراقد أن تأخذني إلى سريري عندما تراني أثقلتُ في الشرب وغلبني النوم على الكرسي.

ولكنّني أحسستُ بكفٍّ تكتم أنفاسي بشدَّةٍ من فمي وأنفي، حاولتُ أن أقاوم، فانزلق بي الكرسي وارتميتُ على الأرض، ورأيتُ ماهر على صدري وهو يضغط بكل ما أُوتي من قوة وقد احتقن وجهه بشكلٍ مروع، كنتُ مُنهكاً مِن الشرب، لم أتمكَّن من إبعاده عَنّي. في تلك اللحظات وأنا أكاد ألفظ أنفاسي الأخيرة، ظهر لي وجه فراقد كالطيف، وهي تسحبه وتُحاول أن تُبعد يدَيه عنّي، لطمها على فمها بقبضة يده، فانطلقت منها صرخة مدوّية، انقضّ مرّة أخرى وحلّقَ كفّيه حول رقبتي وصار يضغط ووجهه يقطر احتقاناً، وأنا أبدي مقاومةً بِما أمكنني. سمعتُ صرخةً من ابنتي وهي تدخل، قالَت: "ماذا تفعل يا ساقط؟!". وغدت تسحبه، فلطمها هي الأُخرى بعنفٍ على فمها بمرفقه، ثم عاد يضغط على رقبتي وهو

يستجمع قواه وقطرات العرق تسيل من فودَيه إلى سكسوكتة. بدا لي أن أحداً سلَّطه لينقض عليّ بكل تلك الشراسة وبكل ذاك العنفوان كي يسلبني حياتي. مدّت ابنَتي يدها إلى زجاجة العرق الفارغة، خبّطَت بها على رأسه، عند ذاك رأيته يفقد توازنه، وينقلب على ظهره بجانبي على الأرض مغميّاً عليه والدم ينزّ من رأسه".

ترقرقتْ دموعٌ في عينَيه وأردف يقول: "طلبتُ من ابنتي أن تسعفني فوراً إلى المُستشفى لأن أنفاسي كانت تتقطّع، وقلبي يخفق بسرعةٍ شديدة، إضافةً إلى آلامٍ في ظهري نتيجة سقوطي من الكرسي على الأرض. اتَّجهنا بسرعةٍ إلى سيّارة ياسمين، جلست فراقد معي في المقعد الخلفي للسيارة، وجلست ياسمين خلف المقود وأجلست شادي إلى جانبها، أدارت المحرّك وغدت تقود بسرعةٍ فائِقةٍ كما لو أنّها تقود سيّارة إسعاف. عندما وصلنا إلى قسم الطوارئ، طلبتُ من الطبيب المُناوب أن يُدخلني فوراً إلى غرفة العناية المركزة.

قال: "ربما حالتكَ لا تستدعي ذلك".

قلت له: "أنا طبيب وأعرف أحسن منك، خذني ولا تتأخّر".

لم يكن يعرفني، فقدَّمتُ له نفسي، عندها رحّب بي وقال: "أمرك دكتور".

أمضيتُ خمسة أيّام في الغرفة تحت المراقبة الدقيقة، رفضتُ فيها الخروج، زارني في تلك الأيام أغلب أطباء دمشق لأن الخبر تسرّب وانتشر بسرعةٍ من خلال الطبيب المُناوب، وبقيتْ ابنتي مع فراقد في المُستشفى طوال تلك الأيام.

حينها أحسستُ بأنّني تعافيتُ، وبعد أن أجريتُ بعض التحاليل والاختبارات الطبّية الأخيرة، عدنا إلى المزرعة، وفوجئنا بأن سيّارتي مُحترقة ومتفحّمة في مكانِها أمام البيت، كما أن كل ما في البيت تحوَّل إلى رماد نتيجة حريق هائل أشعله ماهر في البيت عندما صحا من إغمائه، ويبدو أن انفجار اسطوانتَي الغاز نتيجة الحرارة الشديدة، زاد الحريق لَهَباً".

يومها لم أتألَّم على شيء بقدر ألمي على كُتبي التي احترَقَت، ومن جديد بدأتُ أُأسّس المكتبة الجديدة في البيت كتاباً كتاباً.

***

بعد أن فرغنا من تناول الطعام، قال: "أحتاجُ إلى قيلولة".

أخذته إلى غرفة النوم، فاستلقى على سريري وأغمضَ عينَيه المُتعبتَين. عدتُ إلى الغرفة، لملمتُ ما على المائدة، ثم تمدّدتُ على إسفنجةٍ واستسلمتُ لغفوة. بعد نحو ساعةٍ أيقظتني عطسةٌ شديدةٌ منه، فتحتُ عينَي فرأيته خارِجاً مِن الحمّام يرتدي سروالاً من الصوف كان يرتديه تحت البنطلون، مع كنزته الداخليَّة. جلس على كرسيّه وقال: "البيرة تنعّس وتثقل الجسد".

قلت متثائِباً: "أنا أيضاً لم أكن قادِراً على مقاومة النُّعاس".

أشعلَ سيجارةً ونهض متَّجِهاً إلى المطبخ، خطوتُ إليه فرأيته يملأ ركوة القهوة ويضعها على الغاز.

قلت: "دع عنك يا صديقي".

لبثنا في المطبخ حتى أعددتُ القهوة وعدنا إلى الغرفة.

قال: "أشعر بأنسٍ غريبٍ في بيتك".

قلت: "ابق الليلةَ هُنا.. سنسهر ونتحدَّث، وأقرأ لك قصَّةً جديدةً من قصصي".

قال: "لكن لديكَ مقالة لا بدّ أن تنجزها الليلة كي ترسلها غداً".

قلت: "تتأجَّل، لا توجد مشكلة، سوف أُرسلها بالبريد السريع، وستصل بسرعة".

شرد للحظاتٍ، ثم ما لبث أن مدَّ يده إلى الهاتف، أدار القرص، وبعد قليلٍ جاء صوته: "فراقد، الليلة لن أجيء إلى البيت"، قالها كما لو أن فراقد واقفة قبالته، وأردف يقول: "سأبيت عند صديقي توفيق، أغلقي الأبواب والنوافذ جيّداً، لا تفتحي الباب لأحدٍ كائِناً مَن كان". ثم أملى عليها رقم هاتفي كي تتَّصل به عند الضرورة. وعندما أغلق السماعة، قال: "تلك المرأة تحوَّلت إلى لعنة في

حياتي، أينما أكون تُلاحقني، ليس في صحوي فقط، بل حتى في نومي".

قلت: "هل أنتَ متأكّدٌ بأنّها تناولت القرص؟".

قال: "متأكّد كما أنّني متأكّد من جلوسي معكَ الآن، لكن أينَ اختفت؟! هذا ما يقلقني. لا أحد يعرف عنها شيئاً، لا أهلها، ولا الشرطة".

قلت: "هل تعتقد بأن صديقك الضابط أصبح لديه شكٌّ بأن لك علاقة عن اختفائها؟".

قال: "أتوقَّع ذلك".

قلت: "إذا كان توقّعكَ صائِباً، سيكونُ معتقداً بأنك قمتَ بقتلها وأخفيتَ جثّتها في مكانٍ ما".

قال: "الطبيب الذي اشترى عيادتي تواصل معي منذ مدَّة وقال بأن دوريَّةً من الشرطة أتت وفتَّشت العيادة، لم تترك موضعاً فيها إلّا وفتَّشَته، والشخص الذي اشترى البيت أيضاً سألني عن سبب تفتيش البيت مِن قِبل الدورية؟ فقلتُ بأنّني لا أعلم شيئاً عن السبب. ثم قال

بأنهم كانوا يبحثونٍ عن شيءٍ ما، وقد حفروا موضعَين من البيت، ورَدَموهما.

أصارحكَ يا صديقي بأنّني لستُ مُرتاحاً، أشعرُ بأنّني أقعد على لغم. حتى موت زوجتي ما زال غامِضاً بالنسبة لي، الغموض يكتنف موتها في ذات الميقات، بعد أربعٍ وعشرين ساعة من تناول غيداء القرص بالضبط، أحياناً أكون نائِماً في الليل، توقظني فراقد وتقول بأنَها تسمع بعض الحركات بالقرب من باب البيت، فنسمع الكلب ينبح، وهذا يؤكّد بأنّه يرى أحداً، فأحمل المُسدَّس، وأحاول أن أختلس النظر من بعض زوايا النوافذ، ولكن لا يظهر أحد لي". ثم صمتَ قليلاً وأردف يقول: "بات سماعنا لأصوات عياراتٍ ناريّة بالقُرب من البيت يتكرّر في تلك الأوقات المتأخّرة من الليل"!.

تركته جالِساً في موضعه ونهضتُ قائلاً: "لن أتأخر يا صديقي.. سأعود بعد قليل".

انتعلتُ الصندل وذهبتُ على عجل إلى الدكّان، ابتعتُ نصف لترٍ من عرق (البطّة) وربع كيلو من الفستق

الحلبي، وعلبة دخان (بال مال) لعصمت، وعلبة (مارلبورو) لي، ومن هناك ذهبتُ إلى مطعمٍ على الطريق العام، ابتعتُ نصف كيلو من الكباب، وعدت على عَجَل.

دخلتُ البيت، وكان الدكتور عصمت ما يزال جالِساً في مكانه، فقال: "لماذا أتعبتَ نفسك يا رجل؟ كنّا سنذهب بالسيارة".

قلت: "المكان ليس بعيداً".

قال: "حياتك جميلة وهادئة، تستطيع مِن خلالها أن تبدع، عندما تشعر بقيودٍ في واقعٍ ما وفي أيّ وقتٍ من الأوقات، عليك ألّا تتردَّ بالخروج منه إلى واقعٍ آخر تستطيع أن تُمارس فيه حريّتك الشخصيّة". ثم أردف يقول: "حياتك فيها جمالية البساطة إلى جانب جمالية الفوضى".

قلت: "وحياتك فيها جمالية الفخامة إلى جانب جمالية الرتابة".

قال: "البساطة هي أكثر ثراءً مِن الفخامة، تعلَّمتُ مما حصل معي بأن لا شيء يكون هامشياً في الحياة، استطاع

الواقع الجديد أن ينقذني من الكثير من التعقيدات التي كنتُ أتخبَّط فيها دون أن أدري.

مردود الطب كبيرٌ جدّاً، كان المرضى يُسجّلون أسماءهم قبل يومَين حتى يصلهم الدور. كان دَخلي خلال شهرٍ واحدٍ، يزيد عَن راتب موظَّفٍ مِن الدرجة الممتازة لمدّة سنتَين، وليس من السهولة أن يتخلّى المرء عَن دَخلٍ كبيرٍ كهذا. الآن اكتشفتُ كم أنّني كنتُ تائِهاً عَن نفسي، وتحوَّلتُ إلى مُجرَّد كائنٍ كان كل همّه أن يكتنز المال، وبقدر ما كنتُ أرفع مِن رصيدي، كنتُ أشعر بأنّني حقَّقتُ مُنجزاً عظيماً، كانت الحياة كلّها مقتصرة بالنسبة لي على اكتنازٍ للمال فحسب، لم أكن أرى أحداً أفضل منّي سوى ذاك الذي يملك مالاً أكثر منّي، والحقيقة، فإنَّ (غيداء) ذاتها هي التي مدَّت يدها إليَّ في اللحظات الأخيرة وأخرجَتني من ذاك المُستنقع المُريع الذي كنتُ مُنغَمِساً فيه حتى رقبتي، وكنتُ على وشك أن أغرق فيه من دون أن أدري".

قلتُ مُستغرِباً: "غيداء التي قتلتها؟!".

هزَّ رأسه إلى الأسفَل وقال: "نعم غيداء التي قتلتها، لولاها لَما خرجتُ مِن ذاك المُستَنقع.. هذه هي الازدواجيّة التي تُمثّلها غيداء بالنسبة لي، فهل أقول: لولا غدرها.. أم لولا فضلها.. لولا جَشَعَها.. أم لولا كَرَمها.. لَما انفتَحتْ هذه الصفحة الجديدة المُشرِقة مِن حياتي، ولَما دخلتُ إلى عالَم الكُتب، العالَم الذي أضاء لي حياتي، وكشف لي لمساتٍ جماليّة في الحياة ما كنتُ أدركها لولا دخولي إلى رحاب ذاك العالَم الثري، أجل يا صديقي، فبقدر ما أدين غيداء على تصرّفها معي، بقدر ما أنا مَدينٌ لها في تصرّفها ذاك".

***

بدا مُرتاحاً ومُنشرح الصدر وهو يأكل ويشرب، يُدخّن بفظاظة، يطفئ السيجارة في المنفضة عندما يبقى منها الربع، وبعد قليلٍ يرتشف رشفةً من الكأس ويشعل سيجارةً أُخرى.

تعالى رنينٌ من الهاتف بشكلٍ فجائي كما لو أنَّه رُنَّ في وقتٍ غير مُناسبٍ البتة، نظرتُ إلى الساعة، كانت قد تجاوزت الثانية بعد منتصف الليل ببضع دقائِق.

قلتُ في سرّي: أكيد إلهام.. يبدو بأنّها كتبت قصيدةً جديدة وتُريد أن تقرأها لي.

مددتُ يدي إلى السماعة والرَّنين يتتالى ويملأ الغُرفة، رفعتها إلى أذني، فاندفع على الفور صوتٌ مذعورٌ ممتلئ بالرعب كما لو أن أحشاء الهاتف كانت ملغومة به: "أعطني الدكتور عصمت بسرعة.. بسرعة..".

رمقته بنظرةٍ والسماعة بيدي دون أن أنبس بكلمة، صوَّب هو الآخر نظرةَ استفسار إليّ. عاد الصوت يكرّر ذات العبارة، لبثتُ صامِتاً ومُرتَبِكاً. نهض من كرسيّه وخطا عدَّة خطواتٍ إلى غرفة النوم. صحتُ به: "فراقد على الهاتف..!".

توقَّفت بِه خطواتُه، استدار ينظر إليَّ وقد انقَبَضَت ملامح وجهه في لحظةٍ واحدةٍ، وما لبث أن تقدَّم وأخذ السماعة من يدي قائِلاً بصوتٍ جهوري: "ألو.. ألو..".

جاء صوت فراقد مسموعاً: "أرجوك تعال حالاً.. لا تتأخَّر.. لا أعرف كيف دخلت امرأة إلى البيت وتقول بأنّها غيداء".

أقفل السماعة بخبطةٍ قويَّة دون أن ينطق بكلمة واحدة، كمن تلقّى صعقة مُباغِتة مَنَعَته من النطق، أخذ يذرع الغرفةَ جيئةً وذهاباً وقسمات وجهه تطفح بالحيرة فيما سيفعله إزاء ما سمع. قلت وأنا أنظر إليه: "هل فراقد تعرف شيئاً عَن الذي حصل؟".

قال باقتضاب دون أن ينظر إليَّ: "لا".

قلت: "اهدأ يا صديقي..".

استشاط غضباً وقال: "سأمزّقها إرباً إرباً حتى لو علَّقوا مشنقتي، سأموتُ مرتاحاً لأنّني أكون قد أشفيتُ غليلي منها.. هذه الشيطانة أسوأ من وباء السرطان تنخر في جسدي".

تسمرتْ نظراتي على فيه الذي تخرج منه الكلمات، وبعد قليلٍ سارعَ في ارتداء ثيابه ويداه ترتعشان من الانفعال.

قلت: "ماذا ستفعل؟".

قال: "سأذهب إليها".

قلت: "اتَّصل بالشرطة..".

قال: "لا.. لن أتَّصل بأحد.. هذه مُشكلتي وسأواجهها بنفسي".

ارتديتُ ثيابي على عَجَل وخرجتُ معه، فقال: "ابق في البيت.. قد تتعرَّض لخطر".

قلت: "ما يصيبك، يصيبني، لكن أرى أن نأخذ معنا الشرطة كي يلقوا القبض عليها".

قال بحسم وقد زبد فمه: "لا.. لا.. لا يمكن".

ركبنا السيارة، أدار المحرّك، وهو يزم فمه وعضلات وجهه، وصار يقود بسرعةٍ فائقة والسيارة تمضي في الطرقات كسهمٍ طائش دون أن ينطق بكلمةٍ واحدة حتى وصلنا البيت. كان الليل حالِكاً والسماءُ مُرصَّعة بالنجوم، ترجّلنا مِن السيّارة، رأينا الباب مواربا ًوكان الكلب واقِفاً قبالته ينبح. هرعنا إلى الداخل، رأينا فراقد تقف وسط

البهو ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها وقد غدا وجهُها مصفرّاً كحبّة ليمون. قالت وأسنانها تصطكّ: "كنتُ نائِمة في غرفتي، بغتةً جفلتُ على صوت امرأة واقفة بجانب رأسي تقول: "أنا غيداء ممرّضة الدكتور عصمت.. أين هو؟".

كان وجهها شاحِباً ونحيلاً، وشعرها مجعَّداً، هرعتُ إلى الهاتف، اتَّصلتُ بك، وعندما أغلقتُ السماعة، لا أعرف أين ذهبتْ!".

عند سماع هذا الكلام صعد إلى غرفته هرولةً، وعاد يحمل المُسدَّس في قبضَته، بحثنا عنها في كل ركنٍ من أركان البيت ولم نعثر لها على أثر.

مضى إلى الخارج وقد انتفخ عنقه بالعروق، فأرادت فراقد أن تمنعه، لكنّه أصرّ على المضي والمُسدَّس بيده، فخرجتُ معه. كان الكلب واقِفاً على قوائمه بجانب جذع الشجرة وقد توقَّف عن النباح، وقفنا على عتبة الباب نجول بنظراتِنا إلى المساحة المُضاءة بالمصابيح.. أطلقَ عيارَين ناريّين في السماء، ففزع الكلبُ وصار ينبح، عدنا

ثانيةً إلى الداخل، رمق فراقد بنظرةٍ، ثم أقفل الباب بالمُفتاح، وأحكمه كذلك بالمزلاج.

كان متوتّراً كما لو أنّ ناراً نشبت في داخله، صعدنا إلى غرفة المكتب وهو يتلفَّظ بين لحظةٍ وأُخرى: "أين هي..؟ كيف لم يستطع ذاك القرص القاتل أن يقضي عليها، هذه من النوادر التي لا يُصدّقها عقل!".

ازدادت عيناه احمراراً، امتقع وجهه أكثر فأكثر، وضع المُسدَّس الأسوَد الكبير الحجم بجانبه على المنضدة، رفع يدَيه وصار يضغط بقوَّةٍ على صدغَيه. قلت: "العفو.. أنتَ طبيب.. لكن أقترح أن تتناول قرصاً مهدِّئاً".

ترك الصدغَين وقال: "لا.. لن أستسلم لهذه الشيطانة.. لجوئي إلى المهدِّئات سوف يُشعرني أمام نفسي بالهزيمة.. أنا أقوى مِن ذلك.. مِن المؤكَّد أن أحداً يقف خلفها ويؤجّجها عليّ.. كل المؤشّرات تؤكّد هذا الاحتمال.. وإلّا كيف تستطيع أن تصل إلى هذا المكان وحدها في هذا الوقت المُتأخّر جدّاً من الليل؟! لكن

سأبقى أُقاوم ولن أستسلم لا لها، ولا لغيرها كائناً مَن كان، هذه مسألة حياة أو موت بالنسبة لي". وبعد قليلٍ من الصمت، خرجت منه قهقهة مجلجلة دَوت في أرجاء البيتِ كلّه، وقال: "بهذه الطريقة تُقدّم لي غيداء خَدَماتها"، ثم أردف يقول بصوتٍ مرتفع كما لو أنَّه يهذي: "شكراً لكِ يا غيداء.. شكراً لكِ لأنّكِ تصرّين دوماً أن تعيديني إلى صوابي".

لبثنا ساهِرَين حتى بزوغ الضوء، عندها نهض وقال: "لننم يا صديقي..". فنهضتُ وخرجنا من الباب معاً، اتَّجه إلى غرفة نومه، ونزلتُ إلى الطابق السفلي حيث غرفة نومي، رأيتُ فراقد واقِفة في الممرّ، التقت نظراتُنا للحظاتٍ، ودخلتُ الغرفة.. ألقيتُ بجسدي المُرهَق على السرير وغفوت في غضونِ لحظات.

عندما استفقت وألقيتُ نظرةً إلى ساعة يدي، كانت تُشير إلى الواحدة بعد الظهر. أحسستُ بأنّني شبعتُ نوماً بعد ليلة ليلاء، وكان جسدي مُرتاحاً وقد انتزع النوم منه الإرهاق.

ترامت إلى سمعي نبرات صوت عصمت، مططتُ ذراعَيَ وتثاءبتُ في وقتٍ واحد، ثم نهضتُ وخرجتُ مِن الغُرفة، رأيته واقِفاً مع فراقد في البهو يتحدَّث معها ويلوح يده في الهواء، وهي تنظر إليه وتهزّ رأسها.

عندما رآني، تركها ودنا إليّ قائلاً: "صح النوم أستاذ".

قلت: "تسلم صديقي".

- "اعملي لنا قهوة يا فراقد". قالها ومضى بي إلى غرفته، لبث شابكاً يده بيدي حتى دخلنا الغرفة وجلسنا كتفاً إلى كتف على أريكةٍ.

كانت ملامح وجهه قد استقرَّت، وبدا أنّه استحمَّ منذ قليل، بعد لحظاتٍ مِن جلوسِنا قال: "منذ نصف ساعة اتَّصل بي صديقي منهل، وقال بأنَّه سيزورني اليوم، هذه فرصة جيّدة كي تتعرَّف عليه". ثم ابتسم وقال: "ليتعرَّف عليك أيضاً".

قلت: "أريد أن أعود إلى البيت بعد أن اطمأننتُ عليك".

قال: "لولا مجيء منهل، لتركتك تذهب، ابق الليلة معنا ولن تندم، منهل شخصٌ نادرٌ من نوعه، ولا يقوم بزيارة أحد إلّا نادِراً".

قلت: "إذا كنتَ مصرّاً على بقائي، لا بأس".

صار لدي فضول أن أرى منهل، الشخص الذي استطاع كما وصَفَه لي عصمت: "أن يجمع ما بين الذكاء والغباء، بين الجدّية واللامبالاة".

الفصل الخامس

خرجنا من البيت واتَّجهنا إلى المدينة، عَرَجَ إلى سوق القصّابين، أوقف السيارة في ركنٍ ونزلنا، كان السوقُ مُزدحِماً بالناس، وكانت اللحوم مُعلَّقة في واجهات المحال، والقصّابون يرتدون صدريّاتهم البيضاء، وهم يحملون السكاكين ويحزّون قطعاً ويزنونها للمُشترين، دلفنا في فرعٍ مِن السوق، واتَّجهنا إلى دكّان أحد القصّابين، وما إنّ رآنا القصّاب حتى رحَّب بِنا وقال: "أهلاً وسهلاً دكتور شرَّفتنا أنتَ ومَن معك"، فقال: "أريد خروفاً على ذوقك، يناسب الشَّوي على الفحم يا معلّم رامان".

رفع القصّاب يده إلى رأسه وقال: "تكرم دكتور على رأسي". كان رجلاً في الأربعينيّات من عمره، كان نصف جسده السفلي ضخماً بمؤخّرة ضخمة، وساقين ضخمتَين، والنصف العلوي نحيلاً وكان ظهره يبدو كما لو أنه يخلو من الكتفَين نظراً لصغرهما. مرَّر نظراته على الخرفان المعروضة في واجهة الدكّان، مدَّ يده إلى خروفٍ

مطبوع عليه ختم مديريّة الصحّة في جهات عدَّة، أنزله ووضعه كما هو في كيسٍ كبيرٍ من النايلون الأسود وقال لأحد عمّاله: "خذ هذا الخروف إلى سيارة الدكتور يا ولد".

عندها مدَّ له ثمن الخروف، فقال القصّاب: "دعه علينا يا دكتور".

قال: "تسلم يا معلّم رامان، خذ مِن يدي".

فتناول القصّاب المبلغ، وقبل أن ننصرف، قال: "دكتور، أحياناً في وقتٍ متأخّرٍ من الليل أستفيق من النوم وأشعر بثقلٍ في قلبي، ماذا تنصحني أن أفعل؟".

نظر إلى وجهه بشيءٍ من الفراسة، ثم مدَّ يده إلى زنده، قاس نبضه، وقال: "عندما تشعر بذلك، انهض، امش قليلاً في البيت وعد إلى فراشك، وحاول قدر الإمكان ألّا تكثر من تناول الطعام الدسم في العشاء".

وضع القصّاب كفّه على صدره وقال: "مشكور دكتورنا الغالي، طمأنتني"، فقال له ونحن نُغادر: "حاول أن

تمارس رياضة المشي السريع يومَين في الأسبوع، كل يوم ساعة".

مضينا إلى حيث السيارة برفقة العامل الذي كان خفيف الحركة، وعندما وضع الخروف في الصندوق الخلفي للسيارة، أعطاه عصمت ورقةً نقدية بفئة ليرة واحدة، فتناولها وانصرف قائلاً: "عوَّض الله عليك دكتور".

ركبانا السيارة، أدار المُحرّك، عاد بالسيارة بطيئاً وهو ينظر إلى الخلف حتى اعتدلت على الطريق، قال وهو يمضي بها قدماً: "تعلَّمتُ من خلال تعاملي في العيادة مع مختلف شرائح المرضى أنّ كل إنسانٍ هو فيلسوفٌ في أعماقه، حتى ذاك الإنسان الغبي، فهو فيلسوفٌ غبي". انحرف إلى بعض الشوارع والتفرّعات حتى دخل إلى حي (زبلطاني)[9]. فرمل بمحاذاة شخصٍ متوسَّط القامة، كان واقفاً على الرصيف وهو يعقد يدَيه وراء ظهره، كان أحمر الوجه مع قليلٍ من حبيبات الزيوان منتشرة تحتَ

[9] من أحياء دمشق القديمة.

الخدَّين، معقوف الأنف، خشن الشعر. يرتدي قميصاً كحليّاً على بنطلونٍ من اللون ذات.

لدى وقوف السيارة فتح الباب الخلفي على الفور، صعد وأطبق الباب بعزم.

فوجئتُ بأنّه لم يسلم علينا، لكنه بعد زهاء خمس دقائق قال: "ما الأخبار يا أبا ياسمين؟".

كانت المرَّة الأولى التي سمعتُ فيها شخصاً يُناديه بهذا اللقب، فقال: "لا جديد يا منهل، ذات الروتين اليومي".

قال منهل: "ولن يكون هناك الجديد الجيّد يا عزيزي، سألتك عن الجديد السيّء".

ضحك نصف ضحكةٍ وقال: "ألا توجد فسحة صغيرة من التفاؤل لديك يا رجل؟".

- "ولا نقطة واحدة.. أيّ أحمقٍ تكون عندما تسأل شخصاً يقهقر إلى الخلف: كم خطوة تقدَّمت؟! نحن نعيش على أرضٍ محفوفة بالألغام، تكمن المأساة عندما تكون في أقصى درجات ضعفك، وتتوهّم بأنك قوي، في

أقصى درجات هزيمتك وتتوهّم بأنك منتصر". قالها منهل.

لبثتُ صامتاً في مقعدي الأمامي أصغي إليهما دون أن أبدي صوتاً أو حركة، فجاء صوت منهل من الخلف مرّةً أُخرى: "لا أخاف على مستقبل بلادنا من شيءٍ قدر خوفي من رجل دينٍ منافق، ورجل سياسة منافق.. هؤلاء كثروا في بلادنا، أصبحوا كالذباب، رجل الدين المُنافق كالدودة ينخر في تفكيك المجتمع، ورجل السياسة المُنافق كالدودة ينخر في تفكيك الاقتصاد". ثم سعل عدّة سعلات مُتلاحِقة، قذف بصقة من النافذة إلى الخارج وتابع يقول: "شِئنا أم أبَينا فإن سَواد الناس يتأثَّرون برِجال الدِّين ورجال السياسة.. رجل الدِّين المُنافق يُساهم في نشر رقعة النِفاق في المُجتمَع، كما أن رجل السياسة المُنافق يُساهم في نشر رقعة النفاق تلك، وحتى يمضيا في سيرورة النِفاق معاً، تسعى هاتان الفئتان إلى حجب الثقافة الحقيقيَّة عَن الناس تحت ذرائع التابوات، والأخلاقيات، ودرء المفاسد، والأمن القومي،

والحِفاظ على القِيَم الدينيّة.. ثقافة التضييق على الناس في مواجهة ثقافة الانفتاح التي يمكن أن تبثَّها الثقافة الحقيقيّة، هذه الثقافة التي هي السبيل الوحيد لمواجهة هاتين الفئتين المتطفّلتَين على المُجتمَع، لأن هؤلاء في حقيقة الأمر هم ثلَّة من الكسالى، لا يعملون ولا ينتجون شيئاً، وفقط يستهلكون، ولا شيء يهمَّهم سوى إشباع البطن، وإشباع الغريزة، ولا بطونهم تشبع مهما أكلت، لأن عيونهم تبقى جائعة، ولا غرائزهم تكتفي مهما مارسَت لأن نظراتهم تبقى زائِغة، ولا يملكون من وسيلةٍ سوى ترويع الناس كي يعملوا ويعطوهم الأموال، رجال الدّين يروّعونهم في المساجد كي يأخذوا منهم الأموال من خلال الزكوات والصدقات، ورجال السياسة يروّعونهم بالخِطابات الوطنيّة كي يأخذوا منهم الأموال من خلال الجباية، فيعمل المواطن المسكين ليعطي مِن أجره لرجل الدِّين في المسجد، ويخرج خافض الرأس وشبه مغلق العينَين وهو يمضي في الطريق كي يعطي لرجل السياسة في منافذ الجباية ويعود إلى بيته منهكاً كي ينال

قسطاً من الراحة، ويستفيق في الصباح الباكر ليلتحق بعمله".

بعد قليلٍ أطلق قهقهةً ساخِرة وقال: "هذا المواطن الخانع الذليل، هو مثال المواطن النجيب بالنسبة إليهم.. ومتى ما رأيتَ زعيماً فاسِداً رأيت مِن حَوله ثلّة من رجال الدّين الفاسدين.." انتهى من ضحكته وأردف يقول: "أهل الغرب استطاعوا أن يُكتّفوا هؤلاء، ويمنعوهم الاقتراب من بنية المجتمع، ومن الاقتصاد. رجل الدين المنافق يفسد على المؤمنين الحقيقيين إيمانهم، ورجل السياسة المنافق يفسد على الوطنيين الشرفاء وطنيّتهم.

الملتحي المنافق أينما وضعته سيعيث فيه فساداً، حتى لو نصَّبته إماماً في مسجد، سيجمع حوله أطفالاً بدعوى أنَّه سيُحفّظهم جزء عم، ويقوم باغتصابِهم داخل المسجد، وإن سنحت له الفرصة، سيحيل جسد هذا الطفل الغض بعد أن يغتصبه إلى حزامٍ ناسف ويفجّر به سوقاً آهلاً بالناس، هؤلاء هم العدوانيون

بامتياز الممتلئون حقداً وضغينة تجاه كل ما هو جميل في الحياة. كان فريدريك نيتشه يقول: (كلما صافحتُ رجل دين شعرت بحاجتي إلى غسل يدي)".

***

انعطف عصمت بالسيّارة إلى طريق المزرعة ومضى في كبد الطريق حتى وصلنا البيت.

نزلنا من السيارة، ألقيتُ بنظرةٍ إلى منهل بعد أن سمعتُ منه كل ذاك الكلام في الطريق، رمقني هو الآخر بنظرةٍ خاطفةٍ ولم يتكلَّم. تقدّمتْ فراقد إلينا بخطواتٍ سريعة قائلةً ببسمةٍ مُشعّة: "أهلاً وسهلاً..".

بدا منهل على معرفةٍ بِها فقال: "كيفك فراقد العظيمة؟".

قالَت: "شكراً يا أستاذ، هذا من لطفك، أنا بخير، أنتَ كيفك؟".

قال: "ما أزال على قيد الحياة، أو لا تزال الحياة على قيدي، لا يهمّ كثيراً".

لبثنا واقفين نحو خمس دقائق ننظر إلى الطبيعة من حولِنا، ثم مضى بِنا الأستاذ عصمت إلى الداخل وهو يمسك يَدي بِيَد، ويَد منهل بِيَده الأُخرى. قال له عصمت عند جلوسنا وهو يُشير إليّ: "هذا صديقي الكاتب الشاب توفيق، من مدينة الحسكة، ويُقيم في دمشق". فرمقني منهل بنظرةٍ سريعة وهزَّ رأسه عدَّة هزّات، وصار يفرك زاويتَي عينَيه برأس سبابته دون أن يتكلَّم. ثم أشار الأستاذ عصمت إليه وقال: "هذا صديقي الحميم منهل..". فقلت وأنا أنظر إليه: "أهلاً وسهلاً، تشرَّفتُ بمعرفتك يا أستاذ منهل". فهزَّ رأسه وهو ما يزال يفرك زاويتَي عينَيه بسبابته.

توالت طرقات خافتة على الباب دخلت على إثرها فراقد تحمل سفرةً عليها كاسات من الكريستال مملوءة بعصير البرتقال الطبيعي، ضيَّفَت كل واحدٍ منّا كأساً وهي تقول: "أهلاً وسهلاً.. على الرحب والسعة..". ثم استدارَت وانصرفَت.

قال الأستاذ عصمت متَّجهاً بكلامه إلى منهل ونحن نرتشف العصير البارد: "ماذا تقرأ هذه الأيام يا منهل؟".

قال: "رواية (الصخب والعنف)، وَضَعَ (جبرا إبراهيم جبرا) مقدمة مهمة لترجمته لها".

قال الأستاذ عصمت: "لم أجد هذه الرواية في المعرض، مِن أين أتيتَ بها؟".

رشف ما تبقّى في الكأس برشفةٍ واحدة وقال: "من باعة الكتب على الأرصفة، والله يا صديقي لديهم هناك كتب نفيسة، أحياناً أجد كتباً عليها إهداءات مؤلّفيها، أو مترجميها إلى بعض معارفهم.." ثم نظر إليَّ واستطرد يقول: "الأثرياء يا صديقي لا يبيعون قصورهم الفخمة، أو سياراتهم الأنيقة، الفقراء وحدهم يضطرّون لبيع كتبهم التي اشتروها كتاباً كتاباً من مصروفهم، أو حتى أُهدِيَتْ لهم من مؤلّفيها".

بعد نحو ساعةٍ مِن جلوسِنا، تناهت طرقاتٌ أُخرى على الباب، ودخلت فراقد تدفع مائدة مُتحرّكة، عليها أطباقٌ من الموالح، والسلطة، والبطاطا المقليّة، وقنينة

عرق إلى جانب جفنة عنب. قال منهل: "شكراً يا فراقد العظيمة، طعامُكِ لا يُنسى".

ابتسمَتْ وقالتْ: "هذا من ذوقك الجميل يا أستاذ منهل".

في تلك اللحظات وبشكلٍ لا إرادي، لطمتُ خدّي، وأنا أتذكَّر بأن موعدي مع إلهام كان عصر هذا اليوم أمام باب السينما..: يا إلهي.. كيف نسيت؟ لا بدَّ أنَّها الآن في ذروة قلقها عليَّ.

قال عصمت وقد انتبه إليّ: "ما بك يا توفيق؟!".

نهضتُ وقلت: "سوف أجري مكالمة عاجلة".

قال: "تفضَّل..".

مضيتُ إلى جهاز الهاتف الذي كان مستقرّاً على طاولةٍ سطحها ملبّس بالفورمايكا، اتَّصلتُ بإلهام كي أعتذر منها عن عدم مجيئي إلى الموعد من جهة، ومن جهةٍ أُخرى أخبرها بأنّني لن أعود إلى البيت الليلة، وسنلتقي غداً كي نُشاهد الفيلم. أخذ الهاتف يرنَ، فجاء صوتُ رجل:

"ألو.. ألو..". ثم بعد ثوانٍ مرَّةً أُخرى: "ألو..ألو.." وعندما لم يسمع إجابة، أغلق الخط. فعدتُ إلى مجلسي قلَ ِقاً، وبعد نحو ربع ساعة، نهضتُ مرَّةً أُخرى مُتَّجِهاً إلى جهاز الهاتف وأعدتُ الاتّصال، فجاء صوت إلهام، قلت: "أعتذر عن عدم تمكّني من المجيء إلى الموعد اليوم لظرف طارئ، غداً سنلتقي في نفس الموعد". قالت بنبرةٍ منخفضةٍ جدّاً: "لا أستطيع أن أتحدَّث كثيراً.. غداً سنلتقي". وأغلقتْ الخط على الفور. فعدت وجلستُ في موضعي.

كما أن الجلوس مع النفس له سحره الخاص، كذلك الجلوس مع الأصدقاء له سحره الخاص، كما أن الصمت له سحره الخاص، كذلك الضجيج له سحره الخاص.

لاحظتُ بأن منهل يشرب بشراهة، يشعل سيجارة مِن عقب أخرى وهو مُندمجٌ في الحديث:

"خَيطٌ رفيعٌ بين الحِكمةِ والنِفاق، بعض الناس يُمارِسون النِفاق، وهم يتوهَّمون بأنَّهم يُمارِسون الحكمة، إلى درجة أنَّهم يتباهون بأنَّهم أصبحوا حُكماء

بامتياز، ويكيلون تُهَم اللا حِكمة لِمن لا يحذون حذوهم". قال منهل ذلك، وبعد صمتٍ قصير أردف يقول وهو ينظر إلى الدكتور عصمت: "نحن نعيش في واقع كل شيءٍ فيه أصبح مبنياً على مفاهيم خاطئة، لسنا ضحايا الدِّين، نحن ضحايا المفاهيم الخاطئة للدِّين، لسنا ضحايا السياسة، نحن ضحايا المفاهيم الخاطئة للسياسة. نعيش في غفلةٍ عن الحقيقة، مفاهيمنا للشرف خاطئة، للمال خاطئة، للحوار خاطئة، للعمل خاطئة، للحب خاطئة، للزواج خاطئة، للثقافة خاطئة".

هزَّ الدكتور عصمت رأسه وعبَّ نفساً عميقاً من سيجارته ونَفَث الدخان الكثيف من فتحتَي أنفه، عند ذاك دخلتْ فراقد تحمل طبقاً فيه كبد الخروف وقد حمَّصته، إلى جانب طبقٍ من المخ واللسان، وضعتهما على المائدة برفقٍ وانصرفت. أحسستُ بجوعٍ لأنّنا لم نتناول الغداء، فأخذتُ أمضغ بشهيَّةٍ الوجبة الساخِنة واللّذيذة التي أعدَّتها فراقد كنوعٍ آخَر مِن المقبّلات.

بعد أن فرغ الطبقان، نهض منهل يترنَّح وقد اتَّسعت عيناه واشتدّتا احمراراً، حاول أن يتماسك نفسه من الترنّح، مضى إلى الخارج وهو يُدندن ويتمايل يَمنةً ويَسرة، اختفى نحو ربع ساعة ودندنته تنتشر في أرجاء البيت وتصل إلينا، وبغتة عاد إلينا عارياً تماماً يمشي على يدَيه وقد رفع قدمَيه إلى الأعلى.

انتابتني قشعريرة، وقفتُ أنظر إليه بدهشة، قهقه عصمت ملء شدقَيه وأومأ لي بالجلوس. دار حولنا دورتَين، ثم نَقَزَ منتصباً على قدَمَيه كلاعب جمباز مخمور، جلس على كرسيّه، رشف ما كان في كأسه رشفة واحدة، ثم أفرغ ما تبقّى في الزجاجة في الكأس. مدَّ يده إلى الجفنةٍ الممتلئةٍ بالعنب، حزَّ شقّاً من عنقودٍ كبير، مضغ حبّات العنب الحمراء بلذّةٍ وهو ينظر إلى الحزّ.

دخلتْ فراقد بوجهها المُتفتّح، قالت ببسمةٍ طفيفة: "المَنقل جاهزٌ أستاذي".

نهض عصمت ونهضنا، مضينا معه إلى البلكونة، كان القمرُ بدراً، وكانت أوراق الشجرة تحفحف مع نسمة الهواء.

كانت فراقد قد أعدَّت الخروف الصغير في السيخ، وأوقدت الفحم تحته في المنقل. بعد جلوسنا بقليلٍ، جلبتْ لنا مائدةً صغيرةً وضعت عليها كاسات مع زجاجة جديدة من العرق.

بدأنا نتناوب على تحريك الخروف وننقّر من اللحم المشوي، وأحياناً نقذف قطعاً للكلب الذي جاء يتسامر معنا. مضى الوقتُ دون أن نشعر به حتى بزغ الضوء.. كل شيءٍ أخذ يدور حولي، وكانت الزجاجة الثانية قد فرغت.

فتحتُ عينَي، رأيتني مستلقياً على ذات السرير وفي ذات الغُرفة التي ألفتها، لا أذكر متى وكيف دخلتُ الغرفة. كانت فراقد فتحت الباب والنافذة وخرجتْ دون أن أشعر بها، جلستُ في السرير أفرك عينَي، نفحتني نسمة هواء من النافذة، وما لبثت أن خرجت صوب المغسلة متثاقلاً. أحسستُ بألمٍ شديدٍ في رأسي مصحوباً بشيءٍ

من الغثيان. كانت المرة الأولى في حياتي التي أشرب فيها أربع كاسات من العرق. مضيتُ في الردهة، رأيتُ باباً مفتوحاً، كان منهل نائماً فيها بعريه على السرير، يُصدر غطيطاً. خطوتُ صوب الخارج، لمحتُ فراقد جالسة في غرفةٍ تمرر قلم الكحل الأسود تحت عينَيها، استأنفتُ المسير، ترامت نبرات صوتها: "صح النوم أستاذ توفيق".

قلت: "تسلمي فراقد.. أين الأستاذ عصمت؟".

- ما يزال نائماً.. جاءني صوتُها وأنا أمضي، وبعد ثوانٍ أردفت تقول: "الأستاذ منهل أيضاً لم يستفق بعد".

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة والربع، لم أشعر برغبة في العودة إلى السرير، استأنفتُ المشي إلى البلكونة، كل شيء كان على حاله، وكان الخروف قد تحوَّل إلى هيكلٍ عظمي.

لحقتني فراقد وقالت: "هل تشرب قهوة أستاذ؟"

قلت: "نعم وأريد أن أستمع لصوت فيروز أيضاً".

رفعت رأس سبابتها إلى عينٍ، ثم إلى العين الأخرى وقالت:

"حاااااا ضِر..". وعادت إلى الداخل، بعد قليل تناهى صوت فيروز، ثم أتت حاملةً ركوة القهوة، أردتُ أن أخرج سيجارة فاكتشفتُ بأن علبة دخاني كانت قد نفدت البارحة وكانت فارغةً ومُكرمشة على المائدة. عندها قالت فراقد: "لحظة أستاذ سأجلب لك علبة من دخان الأستاذ عصمت". غابَت نحو دقيقتَين وعادت تحمل علبة دخان (بال مال).

فتحتُ العلبة، أشعلتُ سيجارة، رشفتُ رشفةً من الفنجان، تخيَّلتُ بشكلٍ مُفاجئ إلهام جالسة بجانبي، تخيَلتنا نملك بيتاً يكون خاصاً بنا دون أن يطرق صاحبه علينا الباب كل بداية شهر ويطلب الأجرة، شطحتْ بي المُخيّلة أكثر، تخيَّلتُ طفلتنا الصغيرة تحبو حولنا، أحملها تارةً، وتحملها إلهام تارة.

الفصل السادس

إلهام، هي التي لي في دمشق ولا أحد لي في كل هذه المدينة الكبيرة غيرها، إلهام، عندما نكون معاً، ينتابني شعورٌ بأنَّ دمشق تحوَّلَت إلى امرأةٍ بديعة اسمها إلهام، إلهام الدمشقية الغارِقة في تفاصيل دمشقيَّتها.

امرأة واحدة بمقدورها أن تضفي دفئاً على العالَم على الرغم من كل ما به من صَقيع، تضفي بسمةً على العالَم على الرغم من كل ما به من دموع.

كان الوقتُ مُبكّراً على الموعد، ولكنّني لم أشعر برغبة في البقاء بالبيت، خرجتُ كي أمشي في السوق، مشيتُ في شارع (المتنبي)، وعندما رأيتُ مقهى (الكمال)[10]، اتَّجهتُ إليه وجلستُ على كرسيٍّ خشبيّ، رأيتُ بعض الأدباء يجلسون على بعض الكراسي، وإلى بعض الطاولات،

---

10 مقهى دمشقي شعبي قديم تأسس في بدايات القرن العشرين، يلتقي فيه الناس من مختلف شرائحهم إضافةً إلى الأد\باء والفنانين، وينقسم المقهى إلى قسمَين، قسم صيفي يطل على شارع المتنبي، وقسم شتوي مُغلَق.

والبعض يجلس بمفرده على طاولةٍ ومستغرقٌ في الكِتابة على أوراقٍ بيضاء.

أمضيتُ نحو ساعة ونصف جالساً شربتُ كأساً من الشاي، وآخرَ من القرفة، ثم خرجتُ مع اقتراب الموعد.

كانت إلهام واقِفة أمام باب سينما راميتا، تقدَّمتُ إليها، وعندما رأتني تقدَّمَت هي أيضاً إليَّ، تصافحنا بحرارةٍ فقالت على الفور: "أين كنتَ البارِحة؟! انتظرتك هُنا ساعةً كاملة على أعصابي، ثم ركبتُ سيّارة أُجرة وذهبتُ إلى بيتك، خبطّتُ على الباب كثيراً وأنا أنادي: توفيق.. توفيق.. اسودَّت الدنيا أمام عينَي، لم أعد أعرف ما الذي سأفعله وسط احتمالات كثيرة أخذت تستبدُّ بي إحداها أسوأ مِن الأُخرى. وعدتُ إلى البيت مُنهارة، وبين ساعةٍ وأُخرى أمضي إلى الهاتف، وأتّصل بك، لكن دون إجابة، حتى كان اتّصالك الذي طمأنني.." ثم نشجت واستطردت تقول: "ماذا حصل يا توفيق.. لماذا تفعل كل هذا بي..؟!".

لبثتُ صامتاً، ولم أشأ أن أخبرها بقّصة الدكتور عصمت وما حدث معنا عندما كان سهراناً في بيتي، وبذات الوقت انحرجتُ أن أقول لها بأنّني نسيتُ الموعد وسط كل تلك الأحداث التي حصلت في اليوم التالي، فقلت: "مرَّة أُخرى أعتذر يا حبيبتي.. زارني صديقي الذي نمتُ في بيته المرَّة الماضية، ثم ذهبنا إلى بيته في المزرعة، ولا أعرف كيف مضى بنا الوقت دون أن أدري".

رفعت رأسها تنظر إليَّ بعينَيها اللَّوزيَّتَين، ثم ابتسمَت وقالَت: "المهم أنت بخير".

دخلنا إلى صالة السينما، شاهدنا الفيلم ويدها بيدي، وعندما انتهى الفيلم وظهرت كلمة (النهاية) على الشاشة، وأُشعِلَت الأضواء، كم تمنيتُ أن تبقى يدها بيدي، تبقى يدي بيدِها، فخرجنا، ومشيئا على الرَّصيف فسبَقَتني في القول: "ليت الفيلم كان أطوَل، أحسستُ بأنّه انتهى بسرعة". ثم أضافت تقول: "بصراحة، لم أشبع منكَ بعد". وبعد خطواتٍ أُخرى قالت: "إلى متى نبقى هكذا يا توفيق، نلتقي كاللّصوص..؟".

قلت: "إلى أن تتحسّن الظروف".

- "قد لا تتحسَّن، بل قد تتراجع أكثر، كل شيءٍ في هذا الواقع أصبح وارداً، ما هو مُتاحٌ هذه السنة، قد نستجديه في السنة القادمة ولا نجده، لستُ متفائلة بالقادم".

قالت ذلك وصمتت وغدت تنظر إلى البَعيد، وعندما طال بها الصمت قلت: "بماذا تفكّرين؟".

قالت: " أفكّر أن نتزوَّج ونذهب إلى بيروت".

فوجئتُ بِما قالَت، لكنّني بذات الوقت وجدتها خطوة جيدة نحو الأمام، وما الذي يمنع مِن المُغامَرة، ألم يكن تركي للحسكة ومجيئي إلى دمشق مُغامَرة؟.

تناهى صوتُها بشجنٍ وهي ما تزال تنظر إلى البعيد: "أشياء كثيرة بإمكاننا أن نفعلها ولكن نشعر بقيودٍ تمنعنا، قيود تحيطُ بِنا من كل حدبٍ وصَوب.. أشعر بأنّني مُحاصَرة، لا أستطيع أن أتحدث كما أريد، أرتدي الثياب التي أريد، أسافر كما أريد، أشعر بأن جسدي ليس لي، عمري ليس لي، حريتي ليست لي، تفكيري ليس لي. لا

يبرحني الخوف لحظة واحدة، أخاف من كل شيءٍ حولي، أخاف حتى من نفسي، ويا لهول المأساة عندما يفقد المرء الأمان حتى مع نفسه". ثم بعد قليلٍ أردفت تقول ونحن ما نزال نمشي بخطواتٍ بطيئة وقد تركنا السينما خلفنا: "ألا شيء لديكَ تقوله؟".

قلت: "لديّ".

قالت: "ما هو؟".

قلت: "موافق".

تفتَّحَت أسارير وجهها فجأةً، اتَّسعَت عيناها، امتطَّت حاجباها للأعلى وقالَت: "أأنتَ جادٌّ يا توفيق؟".

شبكتُ كفّي بكفِها وقلت: "نعم أنا جادّ يا إلهام، وسنبقى معاً دون أن نفترق..".

قالَت والفرحة تغمر وجهها وصوتها: "لا أصدّق، كما لو أنّني في حلم وسوف أستيقظ منه بعد لحظات".

قلت: "سأذهب إلى الحسكة، أجلب أبوَي حتى أخطبكِ رسمياً".

قالت: "الآن بدأتُ أصدّق بأنّني لستُ في حلم".

***

عدتُ إلى البيت، تذكَّرتُ مقولةً قرأتها لـ (باسكال) يقول فيها: (للقلب أحوال لا يفهمها العقل). شردتُ كيف أن السنوات أخذت تمضي بي دون أن أزور الحسكة، كنتُ مُستغرقاً في الكتابة، في القراءة، في اللقاءات بالشخصيات الأدبية الكبيرة سواء التي كانت تقيم في دمشق، أو التي تزورها في مناسباتٍ ثقافية، وخاصّةً في معرض الكِتاب الذي تحوَّل منذ دورته الأولى إلى تقليدٍ سنوي. لم يبق أحد لم يأتِ إلى دمشق، لم يبق أحدٌ لم يقم في دمشق ويقيم فيها أنشطة، كانت دمشق محج الأدباء والفنّانين، يتوافدون إليها مِن كل حدبٍ وصوب، من مشارق الأرض ومغاربها، كان التلفزيون الرسمي الوحيد يغطّي الأنشطة، يجري حوارات مع كل تلك القامات الأدبية وأيضاً الفنية التي كانت تتوافد إلى دمشق درّة الشرق، شامة الدنيا. لم يبق فنان أو فنانة، أو مخرج سينمائي لم يحضر إلى كنانة الله. وكانت وزارة

الثقافة مستنفرة في ترجمة عيون الآداب العالمية، وتبيعها بأسعارٍ رمزيَّة.

وكيف يشعر المرء بالوقت في مدينة يرى فيها: محمود درويش، أدونيس، نزار قباني، محمد الماغوط، سعد الله ونوس، عبد المعطي حجازي، الجواهري، غالب هلسا، عبد الرحمن منيف، يوسف إدريس، زكريا تامر، حنا مينة، فاتح المدرّس، فيروز، فاتن حمامة، سعاد حسني، شادية، محمد عبد الوهاب، عبد الحليم حافظ، فريد الأطرش، يوسف شاهين.

شدَّني الحنين إلى الحسكة، إلى أهلي، إلى الأصدقاء، إلى نهرَي (الخابور)[11]، و(جغجغ)[12]، إلى مجانينها، إلى كل ذكرى من ذكرياتي التي تركتها فيها.

أذكر تلك الشهور العسيرة التي عشتها فيها قبل سفري إلى دمشق، مررتُ بظروفٍ صحية ونفسية بالغة السوء،

---

[11] نهر طوله 320 كم، ينبع من جنوب تركيا، ويمرّ بمدينة الحسكة، ويمضي ليصبّ في نهر الفرات في مدينة دير الزور.

[12] نهر طوله 120 كم ينبع من منبعَين اثنَين في هضبة (طور عابدي) في تركيا، ويأتي من منطقة قامشلي ليصبّ في نهر الخابور في الحسكة.

كل ذرة فيَّ كانت تؤلمني، حتى الهواء الذي أتنفسه كان يؤلمني.

استعنتُ بطبيبٍ، شرحتُ له معاناتي، بعد إجراء فحوصات وتوجيه بعض الأسئلة، قال: "لستَ مريضاً.. فقط حساسيتكَ زائدة، حاول أن تُقلّل منها. أنصحك بالسفر والخروج من هذا الواقع لبعض الوقت، أو حتى لوقتٍ طويل، وسيكون كل شيءٍ على ما يرام".

وبناءً على إصراري الشديد، وصف لي أقراصاً مُهدِّئة كي أستخدمها عند زيادة التوتّر، أو الأرق الطويل قبل النوم.

صرتُ أتناول تلك الأقراص بشكلٍ يومي دون أن أُخبر أحداً، كنتُ أشعر بأنّها تُخفّف عني الاضطرابات النفسية التي كانت تُداهمني ولا أحتملها.

في تلك المرحلة تعرَّفتُ بشكلٍ أوثق على جاري (محمود) الذي كانت معرفتي به سطحيّة. وذات يومٍ كنتُ واقِفاً في الشارع أمام باب البيت، وكان الوقتُ عصراً، خرج محمود من بيته الذي كان يبعد عن بيتنا نحو مائتَي خطوة في صف البيوت المُقابِلة، مشى في الشارع،

وعندما اقتربَ منّي، ألقى عليَّ السلام وتقدَّم إليَّ قائلاً: "ما بك يا توفيق؟ تبدو كأنك تحمل هموم العالَم على ظهرك؟".

قلت: "ليتني عرفتُ ما بي يا محمود".

أخذ يدي بيده وقال: "تعال معي..". فمشينا معاً حتى خرجنا من الحارة ووصلنا إلى الشارع العام، حينها أشار بيده لدراجة نارية ذات عجلتَين تعمل بالأجرة كانت تمضي على الطريق، ركبتُ خلف السائق، وركب محمود خلفي، وانطلقنا حتى طلب محمود من السائق أن يتوقَّفَ أمام محلٍّ لبيع الكحول في مدخل السوق. تَرَكَني جالِساً خلف السائق، ونزل على عجل ودَخَلَ إلى الدكّان، لبث نحو خمس دقائِق وعاد يحمل بيده كيساً وطلب من السائق أن ينطلق بنا إلى نهر (جغجغ).

أوصلنا السائق إلى الطريق المُقابل للنهر، نزلنا ودخلنا إلى الحديقة المجاورة، مضينا بين الأشجار حتى وصلنا إلى حافة النهر وجلسنا على الأرض. سَحَبَ محمود من الكيس نصف لتر من عرق (البطّة)، وكأسين من

البلاستيك، وعلبة ماء (بقّين)، وكيساً صغيراً من فستق العبيد غير المقشَّر. سكب العرق في الكأسَين إلى مُنتَصفَيهما، ثم أضاف إليه الماء حتى أصبح على شكل اللبن الرّائب. كان العرق حادّاً وكانت المرَّة الأولى التي أشرب فيها خَمراً، لبثنا نشرب ونأكل الفستق وندخّن. بدا لي بأنّني أتعرَّف على محمود لأوَّل مرة رغم أنه كان جاري في الحارة، وكان يكبرني بنحو سنتَين.

يومها قلتُ له بأنّني أكتب القصص القصيرة، وصدرت لي منذ عدَّة أشهر مجموعة قصصيّة عن إحدى دور النشر في دمشق، فمدَّ يده إلى حَجَرٍ صغيرٍ وقذفه في وَسَط النهر قائِلاً: "لا مستقبل لك هنا يا توفيق، إذا أردتَ أن تُصبح كاتباً مشهوراً، عليكَ أن تخرج من هذه المدينة، وتذهب إلى دمشق، أو إلى بلادٍ أُخرى، بذور المواهب لا تنمو هُنا، بل تموت".

بعد ذلك صار محمود يأتي كل يومٍ إليّ في البيت عصراً، ونذهب إلى النهر، وأحياناً كان يأخذني إلى دكّان العم (جرجس) في حي (الناصرة)، وهو رجلٌ عجوز، فتح دكاناً

صغيراً في بيته على الشارع الفرعي. نشتري منه نصف زجاجة عرق وبعض الموالح ونجلس نشرب في الدكّان، كنا نضيف إلى العرق الماء البارد من البرَّاد الصغير الذي كان في الدكّان ونشرب في كأسٍ من الألمنيوم عليها مسكة يَد كانت عنده، وكان يتوافد إلى الدكّان بعض الذين يجايلوننا في العمر، منهم مَن يجلسون ويشربون، ومنهم مَن يأخذون معهم زجاجات العرق أو البراندي.

في أوقاتٍ أُخرى كنتُ أتابع بعض الأنشطة الثقافية أو الفنية التي تُقام في المركز الثقافي، كانت الشخصيات الشهيرة في دمشق ومختلف المحافظات السورية تتوافد إلى المركز ملبيةً الدعوات التي تتلقّاها. وكان مدير المركز الثقافي يدعوني أحياناً للمشاركة في بعض المهرجانات أو الملتقيات القصصية مع مجموعةٍ من الأدباء الشباب من أبناء المحافظة، وكان أحياناً يأخذنا بسيارات المركز مع الوفود كي نشارك في إقامة تلك الأنشطة في: قامشلي، والمالكية، وعامودا، ودرباسية، ورأس العين، والشدادي، ومركدة.

حننتُ إلى تلك الحارة التي كبرتُ وترعرعتُ فيها، إلى المشي في حارات: تل حجر.. الناصرة.. العزيزيّة.. الصالحية.. غويران.. النشوة.. إلى المخبز الأهلي الوحيد الذي كنتُ أقف على نافذته كي أجلب الخبز إلى البيت، إلى حضور أفلام سينمائية في سينماتها الثلاث: القاهرة، فؤاد، دمشق، إلى تناول السندويش في مطاعمها..

كل تلك المشاهد تداعَت إلى مخيّلتي وأنا مستلقٍ على السرير، ولا أعرف متى غفوت.

***

في صبيحة اليوم التالي، خرجتُ من البيت باكِراً، اتَّجهتُ إلى كراج (العباسيين)، كان الكراج مكتظّاً بباصات (البولمان) الواقفة أمام مكاتب شركاتها، وأصواتٌ تتعالى وتتداخل بأسماء جميع المحافظات السورية. كانت الساعة قد بلغت التاسعة صباحاً عندما وجدتُ رحلة تنطلق إلى الحسكة بعد ساعةٍ ونصف. حجزتُ مقعداً وتجوَّلتُ في الكراج أنظر إلى حشود الناس يمشون في الكراج، يجلسون على المقاعد، يبتاعون هدايا

من محال منتشرة داخل الكراج، ينزلون من الباصات، يصعدون إليها، باصاتٌ تدخل، باصات تخرج، أصوات أغنيات تتعالى وتتداخل مع بعضِها. لفتَ نظري أناسٌ يجلسون في مطعمٍ، تخيَّلتُ المسافة الطويلة التي سأقضيها في السفر، سنذهب إلى حمص، إلى تدمر، إلى دير الزور، سنمضي ثماني ساعات حتى نصل إلى الحسكة. دخلتُ المطعم، جلستُ إلى طاولةٍ كان يجلس إليها رجلٌ يتناول (الفتّة)، قال لدى جلوسي: "تفضَّل".

قلت: "شكراً.. صحّة وعافية".

تقدَّم إليَّ النادل الذي كان على وجهه جرح، طلبتُ صحناً من (الفول المُدمَّس)، لم يتأخَّر، بعد قليلٍ جاء ووضع أمامي صحناً من (الفول المدمّس) الساخِن، مع رغيفٍ من الخبز، وصحناً فيه شرائح من مخلل الشوندر، وأوراق النعناع. أكلتُ الوجبة بشهيَّةٍ، ثم اتَّجهتُ إلى المُحاسب الذي كان جالِساً خلف طاولةٍ يشرب الشاي في كأسٍ زجاجية سميكة، أنقدته الحساب وخرجتُ أتمشى على الرصيف، رأيتُ في ركنٍ مِن الكراج رجلاً

يرتدي سروالاً فضفاضاً، ويعتمر على رأسه قلنسوة، يقف بجانب بسطةٍ صغيرة وضَعَها على الرصيف يبيع عليها الشاي، ويجلس حوله بعض الأشخاص على كراسٍ صغيرة يحتسون الشاي. اتَّجهتُ إلى الركن، ألقيتُ السلام على الجالسين بشكلٍ جماعي، ردّوا عليَّ السلام. جلستُ على كرسيٍّ، وبعد قليلٍ جاءني الرجل قائلاً: "أهلاً وسهلاً أستاذ.." كان شاربه على شكل خيطٍ رفيع، وبين لحظةٍ وأُخرى يبدو بأنّه يُرقص حاجبَيه، فطلبتُ كأساً من الشاي.. أشعلتُ سيجارةً وصرتُ أحتسي الشاي الساخن وأنا أوزّع نظراتي على قامات الناس.

بعد الانتهاء من احتساء الشاي، لبثتُ جالساً على الكرسي حتى قبل موعد انطلاق الرحلة بربع ساعة، عند ذاك نهضتُ متّجهاً إلى المكتب، رأيتُ الباص واقِفاً وقد تجمَّع بعض الركّاب وهم يضعون أمتعتهم في الصندوق الجانبي له. وقفتُ على الرَّصيف، أشعلتُ السيجارة الأخيرة قبل الصعود لأن التدخين ممنوعٌ داخل الباص.

أغلق المعاون باب الصندوق الكبير، ثم فتح باب الصعود فأخذ الباصُ يبتلعنا إلى جوفه واحداً تلو الآخَر، جلس كل واحدٍ في مقعده بموجب ترقيم البطاقة الموجودة بحوزته، ثم صعد السائق الذي كان وجهه ممتلئاً باللحم، وانطلق بالباص خارِجاً من الكراج. بعد قليلٍ من مسيره، أخذ المُعاون يبخَ مُلطّف الجو وهو يمشي في الممَرَ حتى بلغ المقعد الأخير، ثم حمل طبقاً مِن السكاكر وبدأ يُضيّف الرّكاب واحداً واحداً.

تخيَّلتُ (إلهام) جالِسة بجانبي بدلاً عن الرَّاكب، تخيَّلتني أتحدَّث معها ونحن ننظر من خلف زجاج النافذة إلى الطرقات ونودّع دمشق.

هكذا يقترن وجود مدينةٍ بوجود شخصٍ فيها، ونحن نمضي، راودني شعور بأنَّ المسافة تُبعدني عَن (إلهام) وليس عَن دمشق، لكن ما كان يخفّف عنّي هذا الشعور هو أنّني أبتعد لأقترب منها أكثر وكي نكون معاً، لأوَّل مرَّة عرفتُ بأن الحُب يمكن أن يتحوَّل إلى حريقٍ في القلب. إلهام، هي الحبَّ الأوَّل الذي هزَّني من أعماقي، وما رأيتُ

شيئاً جميلاً إلّا وتذكَّرتها، ما استمعتُ إلى أغنية عذبة إلّا وتخيلتها تسمعها معي، ما قرأتُ كِتاباً إلّا وتخيَّلتها تقرأه معي، ما تناولت لقمةً طيِبة إلّا وودتُ لو كانت معي ووضعتُ لقمة بيدي في فمِها، بل ما ضحكتُ ضحكةً ولا ابتسمتُ بسمة، إلّا وتذكَرتها، وأينما يمّمتُ وجهي، رأيتُ وجهها ماثِلاً أمامي. إلهام المرأة التي جعلني أفكِّر بالزواج الذي كنتُ استبعدتُ مجرَّد التفكير فيه، لأنّني كنتُ في مرحلة التكوين، وكنتُ أتوقَّع بأن الزواج سوف يقضي على موهبتي، يُقيّد حتى حرّيتي في الكِتابة، وسوف أرزح تحت تلبية احتياجات البيت الزوجي، لكن جاءت إلهام وأبعدت تلك المُعادَلة عن مخيّلتي.

الفصل السابع

وصلنا الحسكة مساءً، الحسكة الحلم، الحسكة الذكريات العابِقة، كانت الساعة تشير إلى السادسة والنصف مساءً، ترجَّلتُ من الباص، رغبتُ في المشي بعد كل تلك الساعات الطويلة من الجلوس في مقعدي، تقتُ إلى شم روائح مساءات الحسكة، روائح الطعام التي تفوح من حاراتِها، الاستماع إلى اللهجة (الحسكاويّة) والناس يتحدَّثون بِها. لم يكن بيتنا يبعد كثيراً عن الكراج، مشيتُ نحو نصف ساعة وأنا أنظر إلى كل شيءٍ تقع عليه عيناي، وصلتُ البيت، دخلتُ بشكلٍ مفاجئ، لم يكن أحد يعلم بمجيئي.. كان جميع أخوتي وأخواتي في البيت مع أبوَي.. نهضوا جميعاً وكأنَّهم غير مُصدّقين رؤيتي المُفاجِئة بينَهم بعد كل سنوات الغياب تلك، احتفوا بي، قالوا بأن مظهري تغيَّر كثيراً.. قلتُ في قرارة نفسي: ليس مظهري فحسب، بل إن أفكاري وكل شيءٍ فيَّ تغيَّر.. لو بقيتُ في الحسكة، لما كان بوسعي أن أعيش كل تلك الوقائع التي عشتها، تلك الكتب التي قرأتها، تلك

الأنشطة الثقافية التي حضرتها، أو شاركتُ في إحيائِها. والأهم من كل ذلك، لَما التقيتُ بأعذب امرأةٍ خفق قلبي لحبّها بقوة، إلهام، طفلة قلبي ومشاعري.. طفلة روحي وعمري.. يا إلهي كم أحببتها، كم يسحرني كل شيءٍ فيها: صوتها، مشيتها، جلوسها، ثيابها، نظراتها، حديثها، صمتها.

وددتُ أن أرى الطبيب الذي حثّني على السفر، ألتقي محمود، ألتقي كل مَن حثَّني على السفر، كي أشكره شكراً عميقاً. بعد يومَين من بقائي في البيت، واستقبال الأقرباء، خرجتُ إلى بيت محمود، حننتُ إلى تلك الطقوس التي كنا نعيشها على نهر جغجغ. وقفتُ خلف باب بيته، طرقتُ عليه عدَّة طرقات، خرج محمود.. فوجئ بي، ابتسم ودمعت عيناه في لحظةٍ واحِدة، ضمَّني إلى حضنه لمدَّة دقيقة دون أن يتركني، ثم غدا ينظر إليَّ ويقول: "متى أتيت؟".

قلت: "منذ يومَين".

قال: "الحمد لله على السلامة يا صديقي ورفيقي الغالي". ومضى بي إلى غرفةٍ من البيت، كانت مفروشة بأثاث غرفة النوم، قال بأنه تزوَّج منذ أربعة أشهر ونصف، وهذه هي غرفته. قلت: "ألف مبارك يا محمود، هذا خَبَرٌ مُفرح".

جلس مُلاصِقاً بي على اسفنجةٍ جديدةٍ كانت مفروشة على الأرض، ناولني سيجارة وأشعلَها لي، نفثتُ الدخان وقلت: "اشتقتُ إلى طقوسنا الجميلة على نهر جغجغ يا محمود، هل ما زلتَ تشرب؟".

قال: "انقطعتُ منذ مدَّةٍ عن الشرب وصرتُ أصلّي وأصوم، وأداوم على الذهاب إلى الجامع، وأرتدي جلابية بيضاء وقلنسوة، ولكن فجأةً رأيتني أترك كل شيء، وأعود مرة أُخرى للشرب، كانت تلك المرة الأولى التي انقطعتُ فيها عن الشرب حوالي سنة كاملة بعد سفركَ إلى دمشق".

قلت: "ألا تمانع زوجتك؟".

قال: "عندما رأتني مصرّاً على الشرب، وافقتْ بشرط ألّا أشرب في البيت".

أخرجتُ من جيبي ورقة نقديّة بفئة خمسمائة ليرة، ودسستها في جيبه قائلاً: " هذه هدية الزواج يا صديقي".

أراد أن يُعيد الورقة قائلاً: "مفاجأة زيارتك هذه هي أكبر هديّة". فمنعته مِن إخراجها، عند ذاك دخلتْ زوجتُه، وكانت قد زيَّنت يدَيها بالحنّاء، قدَّمتْ لنا كأسَين من عصير البرتقال، قلت: "مُبارك الزواج".

قالت: "الله يبارك بك"، ثم نظرتْ إلى أصابع يدي وقالت: "عقبالك".

قال محمود: "هذا توفيق جارنا في الحارة وصديقي، كان مسافراً إلى دمشق".

ابتسمت نصف بسمة وهي تُرحَب بي وخرجتْ.

قال محمود: "يبدو من وجهك أن ظروفك النفسية تحسَّنت كثيراً".

قلت: "أنا مَدينٌ لك يا صديقي بفكرة السفر، أقلعتُ عن تلك الأقراص المهدّئة التي كنتُ أتناولها، الحياة هُناك منفتحة أكثر، التعقيدات الاجتماعية تبدو أقلّ مِن هُنا".

قال: "أحياناً أشتري بعض الجرائد، وأرى فيها أخبارك وقصصك، ومنذ مدَّة استمعتُ إلى لقاءٍ معك في إذاعة دمشق، توقَّعتُ بأن ظروفك هناك ستكون أفضل.."، ثم أردف يقول بعد صمتٍ قصير: "وما أخبار قلبك؟"

قلت: "واقعٌ في الحبّ، والحبُّ واقعٌ فيّ، يبدو بأنّني سأقتدي بك قريباً يا صديقي.. جئتُ لآخذ أبوَي لخطبتها".

قبَّلني وقال: "ألف مبروك، أفرحتني كثيراً.. هل هي شاميَّة؟"

قلت: "نعم".

قال: "جميلة؟".

قلت: "نعم جميلة"

قال: "ممتاز".

خرجنا من البيت، وقفنا على الطريق ننتظر قدوم دراجة نارية. قلت: "التكاسي في دمشق هي التي تعمل في التوصيلات".

قال: "يا صديقي.. قد يأتينا يوم أيضاً ونركب تكاسي الأجرة في الحسكة بدلاً عَن الدرّاجات".

ظهرتْ درّاجةٌ سريعة من بعيد على الطريق العام، يسبقها صوتُها إلينا، تقدَّمَت وتمهَّلَت بجانبنا وكان عليها راكبٌ يجلس خلف السائق:

- "لحظات وسأعود..". قالها السائقُ لنا واستأنف يقود، فقال له محمود: "تمام.. ننتظرك". لم يتأخَّر كثيراً، فرأيناه يدخل في شارعٍ فرعي، وبعد قليلٍ عاد إلينا بعد أن أوصلَ الرّاكب.

اتجهنا إلى الدكّان ذاته في مدخل السوق الذي كُنّا نذهب إليه سابِقاً، قلت لمحمود ونحن نمضي بالدرّاجة: "هذه المرة أنا سأعزمك، وقفنا بجانب الدكّان، تركته على الدراجة، ونزلت، اشتريت العرق والمكسرات، ثم

ذهبنا إلى المطعم، اشتريتُ دجاجة (بروستد)، وانطلقنا إلى ذات المكان الذي كنا نجلس فيه على حافة نهر (جغجغ). لم يكن قد تغيَّر شيءٌ من الموقع، لكن راودَني شعورٌ بأنّني غبتُ عنه طويلاً. قفزت إليّ عبارة كنتُ قرأتها لـ كيت دوجلاس ويجين: (هناك نوع من السحر في الذهاب بعيداً ثم العودة متغيراً). قلتُ في سرّي: "يبدو أن المكان يبث إلينا شعوراً بأننا قد تغيَّرنا عندما نعود إليه بعد غيابٍ طويل".

قال محمود وهو ينظر إلى النهر: "ما أزل أجيء إلى هُنا بين فترةٍ وأُخرى وأذكر جلساتنا معاً".

أمضيتُ أسبوعاً حافِلاً بين الأهل والأصدقاء، وعدتُ برفقة أبوَي إلى دمشق لخطبة إلهام.

***

الزواج بالنسبة لي كان بمثابة فتح صفحة جديدة مِن الحياة، أدركتُ بأننا نتعرَّف على شخصيَّة المرأة من خلال (الزوجة) أكثر مما نتعرَّف عليها من خلال أي امرأةٍ أُخرى.

بعد يومَين من زواجِنا وعندما رجع أبواي إلى الحسكة، بعتُ أغراض البيت في مزاد (سوق المناخلية)[13] سافرنا إلى بيروت دون أيّ تردّد.

كانت بيروت بمثابة فتح صفحة جديدة من الحياة أمامي، تلك العاصمة المزدحمة بالناس والتي لها خصوصيّتها العمرانية، والاجتماعية، والثقافية، وكان تواجد السوريين كثيفاً فيها. كان الناس من مختلف المحافظات السورية عندما تضيق بهم الظروف الاقتصاديَّة، يلجؤون إلى بيروت للعمل، يمضون فيها وقتاً، يدَّخرون بعض المال ويعودون. كانت فُرَص العمل كثيرة في بيروت، وكان الأجرُ جيّداً.

أمضينا أيّاماً عدّة في فندق، اعتبرناها بمثابة شهر العسل ريثما استأجرنا بيتاً مفروشاً في حي (الأشرفيّة)، وأقمنا فيه، بعد استئجار البيت، أحسسنا بأن علاقتنا

---

[13] من أسواق دمشق القديمة، يعود تاريخه إلى نحو 188 سنة، سُمّي بهذه الاسم لأنّه كان في السابق سوقاً يختصّ بصناعة المناخل والغرابيل، ولكن فيما بعد تعدّدت فيه الصناعات التي اتسمت بجودة عالية، ويحتوي السوق على مزادٍ لبيع الأشياء المُستعملة.

ببيروت توثَّقت أكثر، فأصبح لنا جوار، وتوطَّدت علاقاتنا الاجتماعية خاصَّةً أن إلهام فتحت دورةً لتعليم الأطفال قواعد اللغة العربية، واستطاعت عَن طريق إحدى جاراتنا، وكان اسمها (ناهد)، أن تجد عملاً في روضةٍ للأطفال، وكانت ناهد سيّدة بيروتية، طويلة القامة، شقراء البشرة، ممتلئة الجسد، كان وجهُها يطفح بخصلة التسامح، غدت تزورنا في البيت بين الحين والآخَر، ثم بشكل شبه يومي، كانت سيّدة ظريفة، تضحك بإيقاعٍ مُرتفع بشكلٍ فجائي وهي تتحدَّث، كما لو أن الضحكة تخرج منها لا إراديّاً، تمضي نحو ساعة، ثم تنهض وتقول كعادتها: "يا عذراء"، وتعود إلى بيتِها، وكنتُ أحترمها كثيراً لأنّها المرأة التي اختارتها إلهام كي تكون صديقةً حميمة لها.

أخذ إيقاع الحياة يمضي بنا، كنتُ أتتبَّع إعلانات الصالات السينمائية، وكلّما كنتُ أجد إعلاناً عن فيلم لعمر خورشيد، أو عبد الحليم، كنتُ أصحب إلهام كي نشاهده معاً. كانت إلهام تزداد رقّةً وعذوبةً ووردة وجهها

تتفتَّح يوماً بعد يوم، تعلقتُ بها بشكلٍ غريب بعد الزواج، وعندما كنتُ أخرج مِن البيت، كنتُ أشعر بشوقٍ إليها.

بعد سنتَين من وجودنا في بيروت، أنجبتْ ابنتنا التي آثرَت أن تسمّيها (حنين). قالت: "إذا أذنتَ لي يا توفيق، سوف أسمّيها بهذا الاسم لأنّني خائفة على مستقبل الحنين في بلادنا. عندما قتلوا عمر خورشيد، أحسستُ بانهيار، لم أفق من انهياري حتى فُجعتُ بعد سنةٍ واحدةٍ بموت أعذب شاعر عرفته في بلادي (رياض صالح الحسين). كان خبر موته مؤلِماً بالنسبة لي. التقيته عدّة مرّات في مقهى (لاتيرنا)[14]، و(الهافانا) عندما كان يأتي إلى دمشق.

ما أزال حتى الآن أقرأ دواوينه الأربعة التي أكاد أحفظها كلها من كثرة قراءتها. ثم أخذتْ تدندن بنبرةٍ شجيّة:

---

[14] مقهى لا تيرنا، افتُتِح في سبعينيّات القرن العشرين، كان يلتقي فيه الأدباء والفنانون، وتُقام فيه معارض للفن التشكيلي، وأمسيات أدبية، ومن مرتاديه: سعيد حورانية، فاتح المدرّس، عبد السلام العجيلي، صافي النجفي، الجواهري. وتوقَّف هذا المقهى عن العمل سنة 1988 عندما بُيع.

(لا فائدة من الصراخ

ما دام الصوتُ لا يخرجُ من زنزانةِ الفم

لا فائدة من البكاء

ما دامت المناديلُ لا تكفي لتجفيفِ الدموع

لا فائدة من الطريق

ما دامت الأقلام مدجّجة بالسلاسل

لا فائدة من الثياب

ما دام الجسدُ مملوءاً بالسكاكين

لا فائدة من الحب

ما دامتِ القبلةُ جريمةً قانونيّة

لا فائدة من الرغيف

ما دام القلبُ سيظلُّ جائعاً

لا فائدة منّي

ما دمتُ سأموتُ دونَ رغبة

وثمَّة فائدة لكلِّ هؤلاء

عندما نمضغ عنب الحريَّة)[15].

كانت الساعة تشارف على الثالثة والنصف عصراً، والسماء ترعد بقوَّة دون مطر، عندما عدتُ من السوق إلى البيت، ومن المفترض أن تكون إلهام قد عادت في الواحدة، وأعدَّت الغداء وتنتظر عودتي. رأيتُ بعض الجوار ملتمّين أمام باب بيتي:

- "أستاذ توفيق.. أستاذ توفيق.." تناهى النداءُ إليّ مَقروناً بالطرق على الباب الحديدي.

أفزَعَني المشهد، ارتعدتْ فرائصي، هرولتُ، أو بالأصحّ: هُروِلتُ بخطى سريعة إلى الجَمع، وعندما رأوني، قالوا: "أين كنتَ يا أستاذ توفيق..؟!".

قلت بذهولٍ وأنا أحدّق في وجوههم وجهاً وجهاً: "خير يا جماعة؟!".

قالوا: "الميكروباص الذي يأخذ الآنسات إلى الرَّوضة، انقلب عندما اصطدمَ بسيارةٍ وهو في طريقه إلى الرَّوضة

---

15 رياض صالح الحسين، قصيدة الحريّة.

هذا الصباح. علمنا بالحادث متأخّراً، فجئنا نطرق الباب عليك حتى تلحق زوجتك وابنتك في المُستشفى..".

ركبتُ سيَّارة أجرة واتَّجهتُ على الفور إلى المُستشفى وكل عضوٍ فيَّ يرتجف، وصلتُ المُستشفى، ركضتُ على عجل أسأل عن المُصابات في حادث سَير باص الرَّوضة، أخذت إحدى الطبيبات اسم زوجتي وطلبت منّي الانتظار، لبثتُ أذرع مساحة بهو قسم الإسعاف جيئةً وذهاباً نحو نصف ساعة، حتى تراءت لي ذات الطبيبة بوجهٍ حزينٍ وقالت: "يؤسفني أن أُخبرك يا أستاذ بأن زوجتك توفّيت في الحادث نتيجة تلقّيها صدمة قويّة في الرَّأس تسبَّبَت لها بنزيفٍ في الدماغ". كانت كلماتها تتحوَّل إلى سكاكين وهي تمزّقني، أجل كان أسوأ وأفجَع خبر تلقَّيته في حياتي.. وتابَعت الطبيبة تقول: "أمّا ابنتك، فقد أصيبَت بجروحٍ طفيفة، وهي حالياً في العِناية المُشدَّدة بسبب صغر عمرها".

***

دارَت بي جُدران المُستشفى، مشيتُ مُترنِحاً حتى رميتُ جسدي الفاقد لتوازنه على كرسيٍّ دون ذراعَين كان في الرّدهة، ضممتُ وجهي إلى كَفَّي والدموع تنفجر من عينَي، وغصّة كبيرة أثقَلَت حَنجَرَتي، وقلبي يهبط تحت وطأة تسارع الخفقات.

بعد نحو ربع ساعةٍ من بقائي، شعرتُ بأنامل تربت على كتفي، رفعتُ رأسي، فألفيتُ الطبيبة تحمل عبوة ماء وتُقدّمها لي وعيناها تدمعان.

تناولتُ من يدها العبوة، جرعتُ منها رشفتَين، ونهضتُ أمضي نحو الخارج. وصلتُ البيت مُنهاراً، يا إلهي.. وحدي في البيت دون إلهام، بل وحدي في الحياة دون إلهام. كم كان الموقف صعباً، ولكنّني تذكَّرتُ حنين، حنين التي هي رائحة من إلهام، شكرتُ الله لأنَّها بقيت حيّة، وهذا ما أوقد بصيصاً للأمل في داخلي.

في تلك اللحظات المُروِعة، تخيَّلتها تكبر سنة بعد سنة، تكبر وتُصبح على هيأة إلهام، تفوح منها رائحة إلهام، تكون طيّبة ورومانسيّة مثل إلهام.

بقيت (حنين) أسبوعاً في المُستشفى حتى أذن الأطباء بإخراجِها من المُستشفى، كان أسبوعاً مُروعاً لم أفعل فيه شيئاً سوى أنّني أذهب كل يوم إلى المُستشفى، وأعود مساءً.. لم يعد بإمكاني البقاء في البيت، أو في بيروت.. حلَّت غمامة سوداء على البيت، كما حلَّت على بيروت، فرجعتُ إلى دمشق مهزوماً، رجعتُ مُحطَّماً، أخذتُ معي إلهام كتلةً من الحيويّة، وأعدتها جثّةً هامِدة.

خطر لي أن أعود إلى ذات البيت الذي استأجرته في حي (باب توما)، لعلَّه ليس مسكوناً كي أستأجره، لكنّني تردَّدتُ لأن كل ركن فيه يحمل بصمات إلهام، وهو البيت الذي تزوَّجنا فيه ، ويحتوي على ذكرياتنا، استبعدتُ السكن في الحي كلّه، وذهبتُ إلى حي (مساكن برزة)[16]، استأجرتُ بيتاً هناك، قررتُ أن أقوم بتربية ابنتي دون أن أضعها في أي مكان، ابنتي التي تفوح منها رائحة إلهام، وعندما خطرت لي فكرة أن أضعها في بيت جدّها، كي

---

[16] حي سكني متفرّع من منطقة برزة في غوطة دمشق، ويعود تأسيس منطقة البرزة إلى العهد الروماني، تمتد على مساحة 100 هكتار، بدءاً من مُستشفى ابن النفيس غرباً، حتى مُستشفى تشرين العسكري شرقاً.

تقوم خالتها (مرام) بالعناية بها، تخيَّلتُ إلهام تقول لي: "كيف تستطيع أن تتخلّى عن ابنتنا، وتعيش بعيداً عنها يا توفيق..؟ ابنتنا هي أمانتي لديك، هي رائحتي الوحيدة المتبقيّة في الحياة، لا تتركها لحظة واحدة".

كانت حنين إذ ذاك بلغت سنة ونصف من عمرها، أحياناً تنهض في الليل وتنادي أمّها، فأهدهدها وأدندن لها بتهويدةٍ حتى تنام. صرتُ أصطحبها معي إلى الأماكن التي أذهب إليها، عندما كنتُ أشارك في أمسيةٍ قصصية، كانت تأتي معي إلى المنصة، تقف بجواري وأنا أقرأ، تجري في ساحة المنصّة وتعود إليّ.

كل شيء كان يذكّرني بإلهام، حتى عندما أكون في أمسية، أتخيلها جالسة على كرسيٍّ، تنظر إليّ، وأنا أقرأ لها، لها فقط وليس لأحدٍ غيرها، وما من أحدٍ يسمعني غيرها.

كنتُ ذاتَ يومٍ أمشي برفقة حنين في (سوق الحميديّة)[17] بعد أن اشتريتُ لها ثياباً، فجأةً سمعتُ صوتاً نسائيّاً يُناديني: "أستاذ توفيق.. أستاذ توفيق..". التفتُّ وإذا بـ (ترنيم) تتقدَّم إليَّ، صافحتني، وبعد قليلٍ اهدودرَت دموعٌ من عينَيها وقالَت: "سمعتُ بِما حصل لإلهام.. أحزنَني الخبر كثيراً.. سألتُ عنك في أماكن عديدة، ولم أستطع أن أعرف مكانك، كان بعض الأشخاص يقولون بأنَّهم رأوك، ولكن لا يعرفون رقم هاتفك الجديد، ولا أين تسكن، عرفتُ بأنّك تسكن في دمشق، ذهبتُ إلى ذات البيت الذي كنتَ تسكن فيه

---

[17] من أكبر أسواق دمشق وأجملها، يُعدّ من أطول الأسواق المسقوفة في العالَم، مسقوف بالحديد المثقوب بثقَب صغيرة، وأرضه مُبلَّطة بحجر البازلت الأسود، يبلغ طوله 600 متراً، وعرضه 15 متراً، يبدأ من شارع الثورة، وينتهي إلى ساحة المسجد الأموي، وله العديد من الفروع تؤدّي إلى الأسواق المُتفرّعة عنه مثل: سوق البزوريّة، سوق الحريقة، سوق الخياطين، سوق الصاغة، سوق الحرير، سوف المسكية، سوق العرائس، سوق المناخلية، سوق مدحت باشا، سوق العصرونية، سوق القباقبية، سوق القيشاني، سوق الصوف، سوق القطن، سوق العبي. وهذه الأسماء على الأغلب تُشير إلى تخصّصات هذه الأسواق.

سابِقاً، ولكنّه كان مسكوناً، سألتُ ساكنيه عنك؟ فقالوا بأنَّهم لا يعرفون عنك شيئاً.

قالَت ذلك وحملت حنين وهي تقول: "سبحان الله الخالق، كأنَّها إلهام الصغيرة، إنَّها صورة مُصغَّرة عنها طبق الأصل، كل شيءٍ فيها يشبهها". وانهالَت عليها بالقُبلات، ثم مشينا معاً وهي تحمل حنين، عند وصولنا إلى محل (بوظة بكداش)، قلت: "تفضّلي نرتاح قليلاً". دخلنا إلى المحل، وطلبتُ طَبَقَين من البوظة.

قالت: "أين تسكن الآن يا أستاذ توفيق؟".

قلت: "في (مساكن برزة، وأنتِ يا آنسة ترنيم، أين يقع بيتك؟)".

قالت: "في (الشاغور)"[18].

قلت: "هل هو حيٌّ خاصٌ بالطائفة البهائيّة؟".

قالت: "لا، نحن نسكن في أيّ حيٍّ كان". ثم ابتسمت وقالَت: "لدينا قابليّة للانسجام مع الناس جميعاً مهما

---

[18] حي قديم في دمشق

كانت مُعتقداتهم، ما يهمّنا بالدرجة الأولى الإنسان، بصرف النظر عمّا هو عليه من مُعتَقَد". لبثت تنظر إليّ بسعادةٍ وقالَت: "لا أكاد أصدّق بأنّني جالسة الآن مع أديب".

ثم قالت: "هل قرّرتَ البقاء في دمشق".

قلت: "حالياً، نعم".

قالت: "مَن يهتمّ بالبيت وبحنين؟".

قلت: "أنا..".

قالت: "إذا لم تُمانع، سأجيء معك، أرتّب البيت، وأغسل ما لديك من ثياب كما كانت تفعل إلهام، ثم أحمّم حنين".

قلت: "شكراً لك يا آنسة ترنيم، لا تتعبي نفسكِ".

قالَت: "بالعكس، هذا يُريحني".

قال: "إذاً، لا بأس".

خرجنا من المحل، وأمام الباب الخارجي للسوق، أشرتُ لسيّارة أجرة، ركبتُ بجانب السائق، وركبت ترنيم

مع حنين في المقعد الخلفي وانطلقنا إلى البيت. عند دخولنا، باشرَت ترنيم في غسل الأواني التي كانت مُتراكِمة في المَجلى، ثم غسلت الثياب بيدِها، وقامَت بترتيب البيت، أخذت حنين إلى الحمّام، حمَّمَتها وألبستها الثياب الجديدة التي اشتريتها لها، وقبل أن تخرج أخذت رقم هاتفي، وأعطتني رقم هاتفها قائلة: "في أيّ يومٍ تحتاجني، اتَّصل بي وسأجيء".

الفصل الثامن

عندما رأتني المُحرّرة ذات الحاجبين الرفيعين المقوسين في القسم الثقافي في الجريدة قادماً إليها، نهضت من خلف طاولتها وقالت: "الحمد لله على سلامتك أستاذ توفيق، أطلتَ الغيبة كثيراً هذه المرة". صافحتها وجلستُ قائِلاً: "ظروف..".

وعندما رأت عامل (البوفيه) وكان خارِجاً من القسم يحمل معه كاسات قهوة فارغة، نادته وقالَت: "شاي للأستاذ". هزَّ رأسه واستكمل الخروج. أعطيتها قصة قصيرة جديدة لنشرها، فتناولتها من يدي وقالت: "اشتقنا لقصصك يا أستاذ، لي صديقة مذيعة عندها برنامج أدبي في إذاعة دمشق، عندما ترى لك قصة منشورة في الجريدة، تقرأها بصوتِها في البرنامج، سألتني عدَّة مرّات عن تأخّرنا في نشر قصصك، فقلتُ لها بأنّك انقطعتَ عن الجريدة".

قلت: "كنتُ في بيروت..".

عند ذاك جاءت امرأة تحمل بيدها مقالة أظهرتْ عن أظافرها ذهبيَّة الطلاء. ألقت السلام علينا، وصارت تتحدَّث مع المحرّرة عن الأخطاء اللغوية فيها.

في تلك اللحظات قفز الدكتور عصمت إلى مُخيّلتي الذي كنتُ قد نسيته، تذكَّرت أنه كان يقول: "ابنتي ياسمين تعمل مدقّقة لغوية في الجريدة"، ولكن لم أعلم أيّة جريدة كان يقصد، وعندما قالت لها المحرّرة: "يا سيدة ياسمين"، تحقَّقتُ بأنّها ابنة الدكتور عصمت الذي انقطع تواصلي به بعد زواجي وسفري إلى بيروت، عادت إلى ذاكرتي تلك الأجواء التي عشتها معه وأنا أنظر إلى ياسمين، وأكتشف في وجهها ملامح شبهها به، بل حتى نبرات صوتِها كانت تتداخل معها نبرات من صوته. ويبدو بأنَّها انتَبَهَت بأنّني أطلتُ النَظَر إليها، فنظرَت إليّ نظرة استفساريّة دون أن تتكلَّم؟ قلتُ على الفَور: "أعتقد يا سيّدة يا سمين أنَّك ابنة الدكتور عصمت".

لبثتْ تنظر إليَّ وقالَت: "نعم أنا ابنته".

عند ذاك قالت المحرّرة: "هذا الأستاذ توفيق، كاتب قصة قصيرة، بين فترةٍ وأُخرى يتحفنا بقصةٍ جديدةٍ له، لكنّه كان قد انقطع عنّا بسبب سفره إلى بيروت، وها قد عاد إلينا".

قالت ياسمين: "أجل.. أجل.. أذكر بأنّني دقَّقتُ له بعض القصص القصيرة لغويّاً قبل دفعها للنشر في الجريدة". ثم اتجهتْ بكلامها إليّ وقالت: "أبي أيضاً حدَّثني عنك كثيراً خاصَّةً بعد انقطاعك عنه، وقال بأنك صديق حميمٌ له، كان يزورك في البيت، وكنتَ تزوره في المزرعة".

قلت: "هذا صحيح، لكنّني انقطعتُ عنه بسبب سفري.. على كل حال ما هي أخباره الآن؟".

ألقت نظرةً إلى ساعة يدها الذهبيّة وقالت: "إذا بقي لديك وقت أرجو أن تُشرّفني بزيارةٍ إلى مكتبي يا أستاذ توفيق". وراحت تمشي بخفَّةٍ في الممر.

استردَّتْ ذاكرتي ما قاله لي الدكتور عصمت عمّا فعل زوجُها به في ذاك اليوم الذي سهرا فيه معاً في المزرعة،

عن طلاقها، عن تربيتها لابنها الوحيد (شادي) الذي كان الدكتور عصمت يُعبّر عن محبّته الشديدة له، وتعلّقه الشديد به. قفزتْ كذلك صورة (فراقد) إلى ذاكرتي، المرأة المرهفة ذات النظرات الثاقِبة، عادت تلك الأجواء التي عشتها في تلك المزرعة، عاد (منهل) الذي يجمع بين الجدّية والطرافة، بين الوعي العميق، والبساطة الشديدة، حتى منظر الكلب عاد وهو يقبع على ذيله تحت ظل شجرة الصفاف، أو يمشي إلى جانبنا في المزرعة.

استأذنتُ المحرّرة وأمسكتُ بيد ابنَتي وذهبنا إلى مكتب ياسمين بعد أن أشارت لي المُحرّرة إليه، نقرتُ الباب الذي كان مفتوحاً استئذاناً للدخول، وعندما رأتني نهضتْ مرحّبةً بي باحتفائيَّةٍ ملحوظة. كان مكتبها صغيراً جداً، خمَّنته بمساحة مترَين مُربَّعَين، وكان ابنها (شادي) الذي أراه لأوَّل مرَّة، يقف في زاويةٍ، لمحتُ فيه بعض الشبه بجدّه. جلستُ على كرسيٍّ، وبشكل تلقائي ذهبتْ حنين بعد قليلٍ إلى شادي وكأنَّها تتودَّد إليه.

ضغطتْ ياسمين على زرٍّ كان بجانبه كتابٌ مقلوبٌ على وجهه، وقالت: "ماذا تشرب يا أستاذ توفيق؟".

قلت: "شكراً، شربتُ قهوةً منذ قليل عند المُحرّرة".

قالت ببسمةٍ طفيفةٍ: "تلك كانتَ ضيافتها، وهذه ضيافتي لك بمناسبة زيارتك لأوَّل مرّة إلى مكتبي".

قلت: "ما دام الأمرُ كذلك، سأشرب كأساً مِن الزهورات".

دخل ذات الشاب الذي يعمل في البوفيه والذي أحضر لي القهوة عند المُحرّرة وقال: "نعم يا أستاذة؟". فطلبتْ منه أن يحضر كأسَين من الزهورات، وبعد قليلٍ أخرجَت قطعة كيكٍ مغلَّفة من حقيبتها الجلديّة الأنيقة ذات اللّون الخمري والتي كانت تلمع، وأعطتها لحنين.

- "قرأتُ مجموعة جيّدة من قصصكَ القصيرة يا أستاذ توفيق، ولكنك تتأخَّر كثيراً حتى ترسل لنا قصة جديدة". قالتها وهي تنظر إليّ.

قلت: "بصراحة أنا أعيش من مردود قصصي ولا دَخل لي غيره، لذلك أنشرها في بعض المجلات التي تصدر خارج سورية".

قالت: "إذا كان الأمر كذلك، فمعك حق على الرغم من أن الجرائد والمجلات السورية هي أَولى بإبداعات أبنائها، لكن الاستكتاب قليل، نحن نكافئ الآن على الكلمة الواحدة نصف ليرة سورية للقصص القصيرة".

قلت: "لذلك فإن أغلب كتّابنا يسافرون إلى الخليج، أو ينشرون نتاجاتهم هناك، الأمر الآخر أن تلك المجلات أو الجرائد، واسعة الانتشار وتساهم في إيصال انتشار الأدب بشكل واسعٍ جدّاً".

دخل الشاب حاملاً الزهورات، وضع كأساً أمامي، والأخرى أمامها، وانصرف، فقالَت: "هل زرتَ أبي بعد عودتكَ من لبنان؟".

رشفتُ رشفةً صغيرةً من الزهورات الساخنة وقلت: "لا..".

رفعت سماعة الهاتف وصارت تبرم القرص وفق الأرقام التي حفظَتها.. وبعد لحظاتٍ قالت: "مرحبا بابا.. كيفك.. لك عندي مفاجأة سارة".

تناهى صوته مِن السمّاعة: "الله يسمّعنا الأخبار الطيّبة.. ما هي يا بنتي الغالية؟".

امتلأ فمُها ببسمةٍ عريضةٍ وقالت: "احزر يا أبي الغالي..؟".

لبث صامتاً للحظاتٍ، ثم تناهي صوتُه: "والله لا يخطر ببالي شيء يا بنَتي.. لكن هل يمكنني أن أشمَّ رائحة عريسٍ مِن كلامكِ؟".

ضحكت ضحكتَين مُتتاليتَين ثم قالَت: "لا يا أبي.. أنا أخذتُ نصيبي مِن الزواج واكتفَيت". ثم أردفت تقول وهي تنظر إليّ: "مفاجأتي هي أهمّ.. عندي الآن في المكتب صديقٌ حميمٌ لك.. لم تره منذ مدّة طويلة.. أظنّ بأنّكَ اشتقتَ إليه كثيراً".

جاء صوته: "عندكِ في المكتب، واشتقتُ إليه كثيراً، إذن هو توفيق ما غيره..". فضحكتُ وضحكتْ ياسمين معي وقالَت: "كيف عرفت بأنّه توفيق يا أبي؟".

قال: "لأنّه صديقي الوحيد الذي افتقدته فجأةً ولا أعرف أين صارت أراضيه، فعلاً اشتقتُ إليه أكثر مما تتصوَّرين".

لم تعقّب بشيءٍ، ومدَّت لي السماعة وهي تبتسم، فتناولتها وقلت: "ألو.. كيفك يا صديقي..؟". ولا أعرف لماذا علت غصّة إلى حَنجَرتي.

قال: "أين أنتَ يا خائن.. لم أترك مكاناً إلّا وبحثتُ فيه عنك، قالوا بأنكَ تركتَ البيت، سألتُ عنك كل الجرائد والمجلات، المراكز الثقافية، ذهبتُ إلى وزارة الثقافة، إلى اتحاد الكُتّاب العرب، بقيتُ أبحث حتى يئست وفقدت الأمل". امتلأت عيناي بالدموع وأن أستمع إليه دون أن أجسر على الكلام، فقال بعبارةٍ مقتضبة: "اسمع يا توفيق، ابق هناك في مكانك، لا تتحرَّك، سأركب السيّارة وأجيء حالاً".

قالها وأغلق الخط على الفور. نظرتْ يا سمين إليّ وقالت: "يبدو بأنّه سيأتي".

قلت: "هكذا قال".

قالت: "إذاً سيأتي".

قلت: "فاجأني، لم أحسب حسابي للذهاب إلى هناك، أكيد سيأخذني إلى المزرعة ولن يتركني أعود الليلة".

نهضتْ وقالت: "انتظر، سأطلب إذناً من رئيس التحرير، سنذهب معاً، منذ عشرة أيام لم أر أبي".

في تلك اللحظات أدركتُ أن وجود صديق في حياتك تثق به يُعدّ نعمة، قارنتُ الحب بالصداقة، ولم أجد فارقاً كبيراً بينهما، فكما أن الإنسان يحتاجُ إلى حبيب، فهو يحتاج إلى صديق، ولذلك فإن الحب يتضمَّن جزءاً من الصداقة، كما أن الصداقة تتضمَّن جزءاً من الحب، ومن دون ذلك لا يكون الحب حباً حقيقيّاً، وبدون ذلك لا تكون الصداقة صداقة حقيقيّة.

غابت ياسمين نحو خمس دقائِق وعادت، جلست على كرسيّها، وبعد قليلٍ قالَت: "لاحظتُ مِن خلال تدقيقي لقصصك بأنّكَ تهتمّ كثيراً بسويّة لغتك القصصية".

قلت: "جملة ركيكة واحدة في القصّة يمكن لها أن تجعل القارئ يترك القصة عند تلك الجملة ولا يكمل قراءتها، وعندها أكون قد فشلتُ في مهمّتي كقاصّ، بل أعتبر أن ذلك بمثابة إهانة لي. لذلك أشعر بخوفٍ شديد عندما تراودني فكرة قصة جديدة، أحاول أن أتهرَّب منها، لكنها تلبث تضغط عليّ بشدَّةٍ حتى تقنعني بجدواها، ولا أكتبها إلّا عندما أكون قد رضختُ واستسلمتُ تماماً لهيمنتها على كل ذرَّةٍ فيّ.. أبقى مُنهمِكاً بها تارِكاً كل شيءٍ من أجلِها حتى تقول: "كفى". وعندها لا أستطيع أن أضيف كلمة واحدة إليها. وأبقى في حالة انتظارٍ حتى تُعيدني إليها كي أستأنف كتابتها إلى أن تقول مرَّة أُخرى: "كفى". وهكذا حتى أنتهي من كتابتها بشكلٍ نهائي.

كانت تنظر إليَّ بتركيزٍ وأنا أتحدَّث، فقلت: "عندها يأتي دوري في إعادة قراءتها وإعادة صياغة بعض الجُمَل، استبدال بعض الكلمات بمرادفاتٍ لها، تغيير أماكن بعض الجمل، أو حذفها، أو إضافة جملةٍ جديدة. وأحياناً أقرأها بصوتي وأسجّلها على شريط كاسيت، وأستمع إلى الصوت. عندها يمكن أن أكتشف كلمة لم ترد في موضعها المضبوط، أو عبارة تحتاج إلى تبديلٍ في بعض كلماتِها، هذه القراءة السمعية قد تكشف لي ركاكةً أو هشاشةً في جملةٍ ما، وبعد أن أطمئن لها، أكتبها على المبيضّة النهائية بالآلة الكاتبة".

دخل الدكتور عصمت بقامته الفارعة، ونحن نتحدَّث، فنهضنا، عانقني بحرارة وهو يضحك بابتهاج، تبادلنا القبلات، نظر إليَّ نظرة حبٍّ مطوَّلة وقال: "لقد تغيَّرتَ يا توفيق. ثم راح يقبّل حفيده، نظر إلى حنين، وقال موجِّهاً كلامه لياسمين: "مَن هذه؟".

قالت يا سمين: "ألا تعرف يا بابا؟".

التفت ينظر إليَّ تارةً وينظر إلى حنين تارةً أُخرى وقال: "معقول أنها ابنة توفيق؟".

قلت: "نعم، ابنتي".

حملها على ذراعَيه وقبّلها قائلاً: "هل هي من صديقتك الشاعرة التي حدَّثتني عنها؟".

قلت: "نعم منها".

قال: "لماذا لم تُخبرني يا رجل بأنكَ تزوَّجت؟".

قلت: "تزوَّجنا وعلى الفور سافرنا إلى لبنان".

قال: "أين هي؟".

دمعت عيناي وعلت غصَّة إلى حنجرتي وقلت: "ماتت بحادث سير في لبنان..".

حَوقلَ وقال: "عندما وقع نظري عليك، وخزني قلبي، أطلتَ ذقنك، احتقن وجهُك، حتى نبرات صوتك يشوبها حزن، أكثر من نصف وزنك سقط عنك، اهتم بصحّتك يا توفيق، لا شيء لك غير صحّتك".

قلت: "موتها قَصمَ ظهري".

قالت ياسمين: "كيف تربّي البنت..؟".

قلت: "أقوم بِما أقدر عليه، ويبدو بأنّها اعتادت عليّ، وعندما رأيتها تكثر من لفظ: بابا، وسوف تنسى لفظ: ماما. حزَّ ذلك في نفسي، فعلّمتها أن تلفظ: (باما) وهي تخاطبني بدلاً عن بابا". عند ذاك بكت ياسمين بحرقة وقالَت: "حبيبتي.. كم هو صعبٌ على الطفل أن يعيش بلا أم".

خرجنا جميعاً من المكتب. فقالت حنين: "باما.. وهرولتْ إليّ في الممرّ، وشبكت يدها بيدي".

***

ركبنا سيارة عصمت، وركبت ياسمين مع ابنها في سيارتها ومضينا إلى المزرعة:

- "لم أكن أعلم بأنّني سأفتقدك إلى هذه الدرجة يا توفيق". قالها الدكتور عصمت وهو يسوق.

قلت: "أما تزال تقرأ؟".

قال: "نعم، صرتُ أعمل بفكرتك في إعادة القراءة، استفدتُ منها كثيراً، اكتشفتُ بأن الكتب التي قرأتها كانت تحتوي على الكثير الذي لم أكن أعرفه فيها في قراءتي الأولى". ثم بعد صمتٍ لم يطل به قال: "ما هي مشاريعك الجديدة؟".

قلت: "جمعتُ كل قصائد إلهام، سأطبعها في ديوان اخترتُ له عنواناً وردَ في إحدى القصائد، وهو (قصائد تحترق)".

قال: "عنوان ملفت.. قصائد تحترق.. لو وجدتُ هذا العنوان على أيّ كتابٍ لسارعتُ إليه واقتنَيته".

قلت: "رأيته الأكثر تعبيراً عَن أجواء القصائد، قرأتُها عشرات المرات، قمتُ بتنسيقها بدقّة وفق مضامينها، كانت القراءة ترهبني وأنا أتخيّل بسمتها، دموعها، نبرات صوتها، قسمات وجهها في كل كلمة، كانت تكتب بشعريّةٍ ملتهبة، وكانت تقرأ كثيراً وتتأثّر بِما تقرأ. ذات مرة كنا في أمسية لـ (محمود درويش) في بيروت، وعندما خرجنا رأيتها تبكي وتقول: "قال جملةً زلزلتني من أعماقي:

(يكفيك عقاباً أنني لن أراك كما كنتُ أراك). سأبقى طوال عمري خائفة أن تقولها لي ذات يوم".

بعد صدور الديوان، أفكّر أن أؤسّس جائزةً شعريّة باسمها".

قال: "شوَّقتَني لقراءة قصائدها".

قلت: "سأهديك نسخةً منه فور طباعته".

تمهَّل قليلاً، انعطَفَ بالسيارة وتوقَّفَ بجانب مطعمٍ وقال: "سنتغدى في المطعم". توقفت ياسمين أيضاً بسيارتها إلى جانب سيارتنا، نزلنا جميعاً من السيّارتَين واتجهنا إلى الداخل وهو يبتسم ابتسامة سعيدة، جلسنا إلى مائدة منزويةٍ مغطّاة بمفرشٍ أبيض، انتابتني مشاعر عائليّة ونحن نجلس معاً ونتحلَّق حول المائدة.. بعد قليلٍ جاء شخصٌ بدينٌ بدانة مفرطة يتدلى حزامه تحت كرشه: "أهلاً وسهلاً دكتور عصمت.. شرَّفتَ مطعمنا أنتَ وضيوفك". تقدَّمه صوتُه إلينا.

فطلب وجبةً من الكباب والشقف لنا، ووجبةٍ سَفَرية كي نأخذها معنا.

كان المطعمُ يتضوّع برائحة الشواء الطيّبة.. نظرتُ إلى كرسيٍّ فارغ، وتخيَّلتُ جلوس إلهام عليه، صفنتُ في ذلك وكأنّني أراها ماثلة أمامي، تخيَّلتني أتحدَّث معها، تتحدَّث معي في هذه الأجواء العائلية الجميلة، قالت: "استمتع بحياتك، وخذ بالك من حنين بكل ما لديكَ من إمكانات، حنين هي أنتَ وأنا".

قلت: "حنين هي نبضات قلبي..". عند ذاك قاطعَتني ياسمين قائلةً: "هل ستعود إلى بيروت يا أستاذ؟".

قلت: "سوف أستمرّ في مشروعي الأدبي هُنا".

فهزَّت رأسها.. بعد قليلٍ أتى النادل يحمل الطعام، وبرفقته صاحب المطعم وهو يُكرّر ترحيبه بنا.

كنتُ جائِعاً، فأكلتُ بشهيَّةٍ، وبدأ عصمت يأكل بشراهةٍ كما ألفته في المرات السابقة التي تناولنا فيها الطعام معاً. قال وهو يمضغ الطعام: "كُل يا أستاذ.. طعامهم لذيذٌ جدّاً، بين فترة وأُخرى أجيء إلى هُنا من باب التغيير، وأحياناً أوصي على الطعام، فيجلبوه لي إلى المزرعة".

ثم مدَّ يده إلى الرغيف الذي كان أسفل اللحم وكان دهيناً جدّاً، شَطَرَ منه قطعةً، حطّ عليها سيخاً من الكباب، ثم لفَّها ومدَّها إليّ قائلاً: "كُل حتى تسمن".

أخذتها من يده وقلت: "هل تتناول اللحم كل يوم؟".

هزّ رأسه مُبتسماً والطعام في فمه وقال: "نعم كل يوم أتناول بمعدَّل نصف كيلو يكون مشوياً على الأغلب".

قلت: "ألا يؤذي الصحة إذا كان بشكل يومي؟".

قال: "مادام الإنسان يُمارس الرياضة، يمكن أن يأكل ما يشتهي، المشكلة تكمن عندما تأكل وتبقى خامِلاً، الأجانب يأكلون حتى في الوجبات الصباحية لحوماً مُعلَّبة، ونسبة المرضى عندهم أقل عن نسبتها مقارنةً بعدد السكّان في بلادنا، وأيضاً نسبة المُعمّرين عندهم مرتفعة". ثم ضحك نصف ضحكةٍ وقال: "أيضاً نسبة النوابغ في كل مجالات الحياة مُرتفِعة عمّا هي عليه في بِلادِنا". صمتَ قليلا ونحن ننظر إليه، فاستأنف يقول: "لستُ مع النباتيين الذين يحرمون أنفسهم من اللحوم وهم يعتقدون بأنَّهم سيُعمّرون أكثر، أو يتمتَّعون بصحَّةٍ

أفضل، هُناك مِن النباتيين مَن يُصابون بأمراضٍ قاتلة وهم في الأربعين، حتى الجنَّة لا تكون جنَّةً إذا خَلتَ من اللحم والشراب.." ثم نظر إلى ياسمين وقال بشيءٍ من تلعثم: "وما إلى ذلك..".

فاحمرَّت وجنتا ياسمين خَجلاً وعضَّت شفتها السُفلى عَن بسمةٍ خَجولة.

قلت: "أذكر بأنّني منذ مدَّة قرأت بأن دهون صفار بيضة واحدة تُعادل دهون جلد دجاجة كاملة، فحرمتُ نفسي من تناول صفار البيض، وعندما أشتهيه، أتناول منه فقط البياض".

قال: "تقريباً كل يوم أتناول بيضة أحياناً مسلوقة، وأحياناً مقليّة، جسمكَ يحتاج إلى بياض البيضة كما يحتاج إلى صفارها، ما يحتويه البياض يكتمل بالصفار وما يحتويه الصفار يكتمل بالبياض، كُل كما تشاء ولا تكترث، هذه تقارير طبّية تستجدّ وتختلف بين فترةٍ وأُخرى، وأحياناً تكون مدسوسة، أو غير مُستندة إلى مصادر موثوقة".

قلت: "حتى الكبد؟".

قال: "تناول الكبد ضروري للجسم، الكثيرون في الدول الأجنبية وخاصّةً في بريطانيا وفرنسا يتناولون بشكل منتظَم كبد الإوز، أو ما يُعرَف هناك بـ (الفواجرا). هُناك بعض الأجزاء من اللحوم تحتوي على فوائد للجسم لا تتوفّر إلّا فيها حصراً دون غيرها مِن سائر الأجزاء".

قلت: "حرمتُ نفسي من تناول الكبد أيضاً لأنّني قرأتُ بأن نسبة الدهون فيه مُكثَّفة جدّاً".

قال: "لا تحرم نفسك من شيء، كُل ما تشتهي واطمئن ما دمتَ تُمارس الرياضة، ونفسيّتك مرتاحة، هذا الشخص الذي رأيته الآن، هو صاحب هذا المطعم، هذه بدانة وراثية، أحياناً أرى ابنه الصبي هُنا، وهو بدينٌ مثله، الكآبة هي التي تفتك بالإنسان وتقتله، حاول قدر الإمكان أن تُحقّق لنفسكَ السعادة والرَّفاهية، ابتعد عَن الأشخاص السلبيين الذين يستفزّونك، اقترب من الأشخاص الإيجابيين الذين تجد برفقتهم راحة نفسية. ما دمتَ تُحافِظ على صحتك، فأنتَ رابح مهما مُنيتَ

بخساراتٍ حتى لو كانت فادِحة، وإذا خسرتَ صحتك، فأنتَ خاسرٌ مهما حقّقتَ من أرباحٍ حتى لو كانت باهظة، صحَّتك هي كنزك الذي يجب عليكَ أن تُحافِظ عليه جيداً وتعضّ عليه بالنواجذ".

بعد أن فرغنا مِن تناول الغداء، نهضنا وانطلقنا إلى المزرعة، أخَذَ الدكتور عصمت يسوق ببطءٍ كما لو أنّنا في نزهة، وكانت ياسمين تمضي خلفنا كذلك ببطءٍ دون أن تتجاوَزنا. انعطَفَ إلى طريق المَزرعة، فصرتُ أنظر إلى فسحة الطبيعة الخضراء وأشعر براحةٍ نفسيَّة وكانت نافذة السيّارة مفتوحة، وتتسرَّب منها على وجهي نسماتٌ نقيَّة مُنعشة. توقَّف أمام البيت، ونزلنا من السيارة، بعد لحظاتٍ خرجت (فراقد) هَروَلةً، تقدَّمت إلينا بقامتها المشدودة وهي ترتدي ثوباً قرمزيّاً. كانت مشرقة الوجه، وكان شعرها مشدوداً إلى الوراء ومعقوداً خلف رأسها، وقد علَّقت في أذنيها قرطَين من الذهب.

نظرتْ إليّ وقالت: "أطلتَ الغياب عنّا يا أستاذ.."

قلت: "كنتُ مسافراً يا فراقد وها قد عدت".

قالت: "الحمد لله على سلامتك يا أستاذ".

تقدَّم الكلب أيضاً كعادته، وقف بالقُرب منّا رافعاً رأسه وهو يوزّع نظراته علينا.

مدَّ عصمت كيس الطعام إلى فراقد وقال: "تغدينا في المطعم، هذا غداؤكِ".

تناوَلَت الكيس مِن يده وقالَت: "تسلم يا أستاذ".

مضينا إلى الداخل، لم تحدث تغييرات في الغُرفة، فقط الكتب كانت قد كثرت، أضحَت بشكلٍ دائري حول جدران الغُرفة من الأسفل إلى الأعلى.

وكانت لوحة (العروس اليهودية) في إطارٍ جميلٍ ملأت المساحة الشاغرة فوق الباب. وعندما رآني أُطيل النَظَر إليها، قال: "هذه اللوحة جديدة في البيت، رأيتها عند أحد مقتني اللوحات، واشتريتها منه. كان (فان غوخ) يقول بأنه يريد أن يقف عشرة أيامٍ ينظر فيها إلى تفاصيل هذه اللوحة التي أذهلته، ويتنازل عن عشر سنواتٍ من عمره نظير ذلك".

قلت وأنا ما أزال واقِفاً أنظر إليها: "تحفة فنّية مذهلة، تزخر بشفافية العاطفة، الرجل وهو يضع يدَيه على قلب وكتف عروسه، لا يريد المرء أن يترك عينَيه منها، تبدو ملامح طفولةٍ بريئة في وجه العروس، ويبدو الرجل وسيماً ويكبرها بسنواتٍ عديدة. الألوان منسجمة مع أجواء اللوحة".

قال وهو يُشاركني النظر إليها: "كان أحد الأشخاص طلب من (رامبرانت) أن يرسمها لتبقى ذكرى لزواجه من عروسته".

قلت: "أحسنتَ اقتناءها يا صديقي، ومكانها مناسب جداً، قبالة مكتبتك وأنت تقرأ".

بعد جلوسنا بقليل، دخَلَت فراقد تحمل إلينا كأسَين مِن الشاي، لبثنا نحو نصف ساعة في الغرفة بعد أن احتسينا الشاي، فقال: "ما رأيكَ أن نأخذ قيلولةً حتى نستيقظ نشيطين؟".

قلت: "فكرة جيّدة".

اتّجهتُ إلى غُرفتي التي حفظتُ موضعها، وعندما رأتني حنين في الممرّ -وكانت تلعب مع شادي- هرولت إليّ، فدخلنا الغُرفة واستلقينا معاً على السرير.

بدت حنين مُتعبة مثلي، المسكينة أينما أذهب، تكون معي، ومِن طبيعتي أحبّ المَشي أكثر من ركوب السيّارات، أحياناً تجلس في أرضها مِن التعب ولم تعد قادرة على المشي، فأحملها على ذراعَي وأمضي. ذاتَ يومٍ كُنّا نمشي في (المرجة)، فجلستْ بغتةً على حافة رصيف، حملتها وأجلستها على كتفَي، أمسكتها من كفيها من الأعلى ومضيتُ بها، وهي تضحك، وبعض الناس ينظرون إلينا ويضحكون.

***

أمضيتُ نحو ساعتَين في النوم، ونهضت، نظرتُ إلى حنين، كانت نائمة، تركتها وخرجت متَّجهاً إلى غرفة عصمت.

كان جالِساً على الأريكة يقرأ وقد عقد ساقاً على ساق ووضع كعب قدمٍ على ركبته الأُخرى، وأمامه فنجانٌ من

القهوة. عندما رآني، وضع قصاصةً صغيرة على الصفحة التي كان يقرأها، وأغلق الكِتاب.

عدل في جلسته، وفسح لي حيِّزاً، فجلستُ إلى جانبه على الأريكة، نظرتُ إلى الغلاف، قرأت: (طبل الصفيح)، قلت: "استطعتَ أن تقتني مجموعة جيدة من الكتب".

قال: "ما أزال أدرك بأنّني لم أقرأ شيئاً.. كلّما أقرأ كتاباً جديداً يعتريني شعور بمدى حَجم فقري قرائيّاً.. لم أكتشف حتى الآن شيئاً أكثر جدوى مِن القراءة، خلال هذه السنوات تعزّز لديّ خوفٌ على الجيل الجديد من إحجامه عَن القراءة، لم أعد أخاف عليه من شيء بقدر خوفي عليه مِن عدم القراءة".

ولَجَتْ فراقد تحمل فنجاناً من القهوة وقد شمَّرت عَن ساعدَيها، وضعتها على منضدة زجاجية أمامي، وخرجت دون أن تتكلَّم.

قال: "أصبحتُ خائِفاً على المستقبل وأنا أرى حالات اللاقراءة متفشّية في مجتمعنا، أعتقد بأن الذي لا يقرأ لا يكون جديراً أن يدير مزرعة دواجن، لأنه سوف يفشل

في إدارته لها، فكيف إذا تمكَّن من قيادة مؤسسة، أو مدينة، أو وزارة، أو أصبح برلمانياً، أو قائداً للجيش، أو لبلادٍ بأكملها وهو لا يقرأ ولو في الشهر كتاباً واحِداً، لا يستمع إلى الموسيقى، لا يفقه شيئاً في الفن التشكيلي، في السينما، أنا خائفٌ كل الخوف على مستقبل حفيدي شادي، ومستقبل ابنتك حنين، وأحفادك".

حملتُ الفنجان مع صحنه، رشفتُ رشفةً صغيرةً مِن القهوة، فأردف يقول: "لذلك يا صديقي أُشجّعكَ على فكرة تأسيس الجائزة باسم إلهام.. ثم علَّق سيجارةً في فمه، أشعلها وقال: "في السنة الماضية، أخبرني أحد بائعي الكتب على الرَّصيف بأن أحد الأدباء الكِبار هُنا قد عَرَضَ مكتبته المنزلية للبيع لأن زوجته كانت مريضة وتحتاج إلى علاج، ذهبتُ إليه، كانت المكتبة تتضمَّن عشرات الكتب المهداة له من مشاهير وكبار الأدباء من مختلف البُلدان، وكانت تتضمَّن حتى مؤلفاته التي تجاوزت عشرين كتاباً. قال لي بأنّه منذ أكثر من شهرَين

عرضها للبيع ولا أحد يشتريها، وأنه إذا يئس، سوف يبيعها لبائعي السندويش بالكيلو.

أحزَنَني جدّاً ما سمعت، فأعطيته المبلغ الذي طلبه ثمناً للمكتبة وقلت: "هذه المكتبة أصبحت ملكي أليس كذلك؟".

قال: "نعم هي مُلكك الآن".

قلت: "وأنا حرّ التصرّف بِها".

قال: "نعم وأنتَ حرّ التصرّف بِها".

قلت: "بموجب هذه الحرّية، فإنّني أهديها لك تقديراً لمؤلّفاتك، ولقراءاتك بشرط أن تعدني وعداً قاطِعاً بأنك لن تبيعها مهما حصل".

نظرَ إليَّ، انهمرت دموعٌ من عينَيه، وهزّ رأسه بالإيجاب".

تناهى صوت حنين كصدى إلى سمعي: "باما.. باما..".

انتفضتُ تلقائياً، هبطتُ الدرَج مهرولاً، رأيتها واقفة مع ياسمين تنظر يمنةً ويَسرةً وهي تنوح، وعندما وقعت نظراتُها عليّ، هرعَت إليَّ قائلةً: "باما.. باما..".

قالت ياسمين: "نهضتْ للتو مِن النوم ويبدو أنها خافت عندما لم تجدك معها، صارت تبكي في الغُرفة، فأتيتُ بِها إلى هُنا محاولةً أن أهدِّئها".

قلت: "اعتادت أن تراني عندما تفيق.. وبغتةً نظرتْ إليّ، ونظرتُ إليها، فتشابَكَت نظراتُنا لثوانٍ، قالت: "لماذا لا تتزوَّج؟".

كان السؤال مُفاجِئاً لم أتوقَّعه، لبثتُ صامِتاً دون أن أعرف بماذا أجيب، ورأيتني أطرح عليها ذات السؤال: "لا تتزوَّجين؟".

لم تُجب هي الأُخرى، فحملتُ حنين بيمناي، قبّلتها وعدتُ بِها إلى عصمت.

مشاعر الأبوّة غريبة، هكذا تشعر بأن جزءاً منك يمشي معك على الأرض، منفصل وغير منفصل عنك بذات

الوقت. قلتُ في سرّي: "الذي له أبناء، لا يشعر بوحشةٍ في العالَم مهما كانت ظروفه قاسية".

جاءت ياسمين ومعها شادي، بعد قليلٍ دخلتْ فراقد حاملة هريسة عليها طَبَقةٌ من جوز الهند الناصع البَياض، قالت بأنها صنعتها للتو في البيت احتفاءً بزيارتنا، جلسنا جميعاً نأكل الحلوى الساخنة وبين لحظةٍ وأخرى أختلس نظرةً من يا سمين، فأراها أيضاً تنظر إليّ.

لبثت ياسمين جالسة معنا نحو ساعة، ثم نهضت وقالت بأنَّها سوف تذهب إلى فراقد كي تُساعدها في إعداد العشاء. نظرتُ إليها مِن الخلف وهي تمشي شطر الباب، وبغتة التفتت كما لو أنَّها عرفت بأنّني كنتُ أنظر إليها وقالت: "هل ببالك صنفٌ معيَّنٌ من الطعام تشتهي أن تتناوله في السهرة يا أستاذ توفيق؟".

قلت: "لا".

قالت: "ولا شيء..؟".

قال الدكتور عصمت متَّجهاً بكلامه إليّ: "اطلب شيئاً يا رجل، لا تخجلها".

فقلت: "كبة نيّة".

ابتسمت وقالت: "حاضر، سأصنعها لك بيدَي". وعادت تستدير خارجةً.

***

كانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف عندما دخلت فراقد برفقة ياسمين وأخذتا في وضع أطباق الطعام على المائدة. جلسنا جميعاً وجلست فراقد أيضاً معنا في جلسةٍ عائليّةٍ حميمة، شردتُ بياسمين، تخيَّلتُ إلهام، تراقصت الصورتان أمام عينَي، تداخَلتا: ياسمين.. إلهام.. ياسمين.. إلهام.. ياسمين.. إلهام.. ياسمين.. إلهام.. ياسمين.. إلهام..

ما أردتُ أن أُقحم حنين في الأمر وأنافق على نفسي بأنّني أحتاج إلى امرأةٍ كي تهتم بِها، أو تعينني على تربيتها.

قال الدكتور عصمت موجِّهاً كلامه لياسمين: "شاركينا في الشرب"، فملأت لنفسِها كأساً مِن العرق، وصارت ترتشف رشفات صغيرة، وتتناول الطعام، وكذلك سكبت فراقد لنفسِها كأساً.

عندما بلغت الساعة الحادية عشرة ليلاً، نهضتْ ياسمين بعد أن تناولتْ العشاء وقالت بأنّها ستنام حتى تستفيق في الصباح وتأخذ شادي إلى المدرسة، ومن هُناك تذهب إلى عملها، ونهضت فراقد نصف نهضة كي تخرج، فمنعها الدكتور عصمت بتلويحةٍ من يده.

انفتحت شهيَّتي للشرب، بدا المكان سحريّاً، لأوَّل مرّة حسدتُ عصمت على هذه الأجواء الممتعة التي يعيشها، على هذا القرار الحكيم الذي اتَّخذه. تخيَّلتني أن أكون محظوظاً ذات يومٍ وأحذو حذوه في هذا القرار. نظرتُ إلى الكتب، رأيتُ رؤوس مؤلّفيها تشرئب من داخلها، ازدحمتْ الغرفة بالوجوه: هوغو، أرويل، جويس، دستويفسكي، تولستوي، موباسان، ديكنز، سارتر، نيتشه، كامو، وايلد، فوكنر، كافكا، شوبنهاور، هايدغر، فرويد، وولف، بوفوار، نن، ساغان..

تذكرت وصف ستيفان زفايج بأنَّهم (بُناة العالَم)، تخيَّلت بأن العِبارة خانته، الأصح: بُناة الإنسان. كم كانت البشريّة ستلبث غارقة في الغباء لولاهم، كم كان

الدجّالون سيلبثون يتحكّمون بالناس، يثيرون فيهم النعرات والفتن والتحريض والكراهية والقتل والدمار دونهم.

استطاعوا أن يُحرّروا عقول الناس مِن سطوة الدجّالين والمُنافقين الذين وضعوا ألف قيد وقيد داخل الإنسان ليبقى يرتعب حتى من نظرةٍ صغيرة إلى امرأة جميلة صادفها في الطريق، أو حتى يتخيَّل بينه وبين نفسه امرأةً جميلة. وما زالوا في بعض بقاع الأرض ينزعون كل خصلةٍ من خصال الجمال والحياة والحرية من أعماق الإنسان، ويزرعون بدلاً عنها الغل، والرعب، والقتل، والفاقة.

نهض الدكتور عصمت والكأس بيده، اتجه إلى المسجلة، شغّل أغنية (خطرنا على بالك)، وغدا يرقص على إيقاعها وهو يرفع الكأس بيد ويُفرقع بأصابع اليد الأُخرى، بدا أمامي ممتلئاً بالحياة وهو يرقص باحتفائية وبحركاتٍ مُنسجمة، وعند منتصف الأغنية، رفع الصوت إلى الآخر وتقدَّم إلى فراقد، مدّ يده إليها، فاستجابت بفرحٍ ونهضت، شبكت يدها بيده وشاركته الرقص،

كانت لحظات مُذهلة عشتها في حياتي وقدا بديا أمامي كلؤلؤتَين وهما ينسجمان مع موسيقى الأغنية وصوت (طوني حنا). لم أكن أعلم بأن هذا الرجل يمكن له أن يصنع كل هذا الفرح الباذخ في هذا المكان المُنعزل عن الناس وهو يحتفي بي بطريقته الخاصة بعد كل ذاك الغياب.

***

فتحتُ عينَي المثقلتَين بالنوم، رأيتني ممدّداً على سريري، وبجانبي حنين، قلت في نفسي: "يبدو بأنّني البارحة أثقلتُ في الشرب، وجلبتنا فراقد إلى الغرفة، أنامتنا على السرير، وغطَّتنا بالبطانية وانصرفت. نظرتُ إلى ساعة يدي، كانت تشير إلى العاشرة، أحسستُ بظمأٍ شديد، حملت إبريق الماء الزجاجي الذي كان ممتلئاً على المنضدة بجانب السرير، وضعته في فمي وشربتُ نصفه حتى ارتوَيت. لم أرغب في النهوض، استلقيتُ ثانيةً على السرير، أغمضتُ عيني وغفوت. نقرتْ حنين على وجهي قائلةً: "باما.. باما.."

فتحتُ عينَي، قالت بأنها تُريد ماءً، ملأتُ لها الكأس، فشربتْ، ثم توسَّدَتْ ذراعي وعادت إلى النوم.

كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة والنصف عندما استفقتُ ثانيةً، خرجتُ إلى البهو، لم أر أحداً، تذكَّرتُ بأن ياسمين خرجت مبكّراً إلى عملها.

دنوتُ من دَرَج الطابق العلوي، مددتُ يدي إلى الدرابزين، وصعدت.. كان باب غرفة الأستاذ عصمت مغلقاً. خطوتُ إليه، رفعتُ يدي كي أطرقه استئذاناً للدخول، لكنّني في اللحظة الأخيرة تردَّدتُ وقلت: ربما يكون مستغرقاً في القراءة، ولا أريد أن أقاطعه. أحنيتُ رأسي، نظرتُ من الثقب إلى الداخل، رأيته مُمَدَّداً على الأريكة وهو عارٍ، وكانت فراقد أيضاً عارية تقع بالقبلات على قضيبه، كان مسترخياً يداعب إليتَيها بيد، وشعرها ووجهها باليد الأُخرى، وبين لحظةٍ وأخرى يُصدر تأويهةً منتشيةً على شكل نأمة.

تناهت إلى سمعي نبرات صوته الخافِتة: "يا لكِ من امرأة رائعة يا فراقد.. من أينَ تأتين لي بكل هذه اللذة..

اعتدتُ على هذه اللحظات العظيمة منكِ كل يوم يا ملكتي".

تناهت نبرات صوتها: "أنا أيضاً اعتدتها يا تاج رأسي".

تناهت نبرات صوته: "أينَ كنتِ طوال كل تلك السنوات؟".

تناهت نبرات صوتها بهمسٍ خفيض: "كنت متنظرةً لقاء العُمر بك يا نور عينَي".

مدَّ يده إلى كأس الحليب، رشف رشفة، ثم أشعل سيجارة، نفث دخانها بطلاقةٍ في أجواء الغرفة وقال: "الجنس في كل مرحلة من مراحل العُمر له جمالياته، ولكنّه على عتبة الخامسة والستّين يكون أكثر جمالاً، لم يسبق لي أن استمتعتُ بلذَة الجنس كما أستمتع بِها في هذه المرحلة معكِ يا غاليَتي".

قفزتْ إلهام إلى مخيّلتي، إلهام التي فارقتني قبل أن أشبع منها جنسياً، أجل لم أشبع، فها هو عصمت على عتبة الخامسة والستّين، وما يزال يستمتع بالجنس كما

لو أنّه شاب يافع. وتبدو فراقد متدرّبة جيداً، تعرف كيف تثيره وتجعله يستمتع.

قفلتُ راجِعاً إلى الخلف وقد انتصب عضوي، امتلأ شهوةً، دخلتُ دورة المياه، رششته بماءٍ بارد حتى أخذ يستنيخ رويداً رويداً. في تلك اللحظات، تذكَرتُ (ترنيم) التي لم أتَّصل بِها بعد تلك المرَّة التي أتت فيها إلى البيت، وكانت اتَّصلَت بي مرَّتَين حتى تأتي، وكنتُ أتجنَّب زيارتها لي وأقول لها بأنّني مُنشغل ووقتي ضيِّق، تخيَّلتها عندما كانت تعمل في البيت، استردَّت ذاكرتي رشاقة جسدها وهي تمضي في مساحة البيت، وخَطَرَ لي أن أتَّصل بِها كي تأتي.

حملتُ حنين وخرجتُ بسرعةٍ والإثارة تسري في جسدي مما رأيت في غرفة الدكتور عصمت، ومما سمعتُ من كلامهما سواء الغزليّة، أو الألفاظ الجنسيّة التي كانا يُردّدانها بنشوة.

كانت السماء مخضبة بأشعة الشمس الملونة، مشيتُ في طريق المزرعة وأنا أستحثُّ خُطاي حتى وصلت إلى

الطريق العام، لوحتُ لسيارةٍ بيك آب قادمة، فرأيتها تتمهَّل وتتوقَّف بعد أن تجاوزتنا بخطوات عدَّة. هرولتُ إليها وحنين بيدي، كان وجه السائِق متغضّناً، ويلف حول رأسه بشكلٍ دائري شماغاً أحمر اللون، وكانت تجلس بجانبه امرأة ضخمة. قلتُ له: "هل تأخذنا معكَ إلى السوق؟".

أشار لي بكفِّه أن أصعد في خلفيَّة السيّارة. قالت المرأة: "أعطني الطفلة كي تجلس معي في الأمام".

حاولتُ أن أعطيها حنين، لكنّها تمسَّكت بي وأبت أن تتركني.

جلستُ في خلفية السيارة، أجلستُ حنين في حضني وقد أمسكتُ بِها جيداً. عند وصولنا إلى قلب السوق، شكرتُ السائق الذي رفض أن يأخذ منّي أُجرةً وقال بأنَّه لا يعمل في توصيل الركّاب، ولكنّه عندما رأى الطفلة معي، اعتقدَ بأنّها مريضة، وسوف آخذها إلى الطبيب، لذلك توقَّف.

أنفضتُ ما علق على بنطالي من غُبارٍ، ركبتُ سيارة أُجرة على عجل وذهبتُ إلى البيت، فور وصولي رفعتُ سمّاعة الهاتف، اتَّصلتُ بـ (ترنيم) وقلت: "أنا في البيت، إذا كان لديكِ وقت، يمكنكِ زيارتي".

قالت: "بعد حوالي ساعة سأكون عندك".

انتظرتُ والشهوة تسري في عروقي بعد فترةٍ طويلةٍ كنتُ قد نسيتُ فيها الجنس. فتحتُ الباب، أخرجتُ نصف جسمي وألقيتُ بنظرةٍ إلى الشارع، ثم عدتُ وتركتُ الباب مفتوحاً حتى تدخل ترنيم دون أن تطرقه.

فتحتُ عبوة بيرة، وأشعلتُ سيجارة وجلستُ أدخّن وأحتسي البيرة، وفجأةً تناهى صريرٌ مِن الباب، وأشرقت ترنيم منه ببشرتها الحنطيّة الصافية، أحكمت الباب خلفها وتقدَّمَت بإشراقتها إليّ يفوحُ منها عطرٌ نسائيٌّ منعش.

كانت ترتدي بنطلوناً ضيِّقاً من الجينز الأزرق له حزامٌ عريض يتوسَّطه إبزيمٌ مؤطَّر بالبلّور، وقميصاً أبيض تناثرت عليه طبعات الأزهار، وقد تزيَّنت كما لو أنَّها

قادمة إلى لقاءِ حبيبٍ، تخيَّلتُ مُجدّداً منظر الدكتور عصمت مع فراقد، تخيَّلتني في نفس وضعيَّة الدكتور عصمت، وتخيَّلتُ ترنيم في نفس وضعيّة فراقد، ونتبادل نفس العبارات. نظرتُ إليها نظرة شهوة، ويبدو بأنَّها أدركت مغزى النظرة، فارتعَشَتْ وهي تنظر إليَّ، تقدَّمتُ إليها، وضعتُ أصابعي بين خصلات شعرها البرونزي المتموّج، فلم تُمانع، تركنا حنين جالسة تُشاهد مسلسلاً كرتونياً في التلفزيون، ومضينا إلى غرفة النوم، فور دخولنا، ضممتُها إلى صدري، وانهلتُ على وجهها بالقُبُلات كظمآنٍ انقطعَ عنه الماء لأيامٍ، وبغتةً رأى نبع ماءٍ عذب، فوقع عليه بفمه يشرب بِنَهَم. تمدّدنا على الأرض، وكانت ترنيم تستجيب لكل ما كنتُ أطلبه منها، وبعد أن انتهيت، انقلبتُ على ظهري وقد ارتحت واسترخَت مفاصلي.

نهضت ترنيم، وغدت تعمل في ترتيب البيت زهاء ساعة، وعندما أرادت أن تنصرف، رغبتُ بها مرَّةً أُخرى، فاستجابت، ثم انصرَفت.

الفصل التاسع

بدأتُ ألاحِظ بأنّني كلّما أذهب إلى مزرعة الدكتور عصمت، أرى ياسمين هُناك، والأمر الآخَر لاحظتُ بأنّه أيضاً بين حينٍ وآخَر يتَّصل بي ويطلب أن أزوره لأن ابنته ياسمين موجودة عنده وهي التي تقول بأنّها اشتاقت إلى حديثي عن الأدب، وعن الروايات التي قرأتها. وذاتَ يوم وكان الوقتُ مساءً، اتَّصل بي الدكتور عصمت وطلب منّي زيّارته، فحاولتُ أن أعتذر حتى لا أثقل عليه بزياراتي، وكنتُ أدعوه أن يقوم هو بزيارتي، وكان يُلبّي ويقضي ليلةً في بيتي. لكنّه في ذاك اليوم قال بأن ياسمين سوف تبيت عنده وأنّه اتَّصل بي بناءً على رغبتِها.

وعندما وافقتُ، قال بأنّ ياسمين سوف تأتي إليَّ بسيّارتها حالاً وتأخذني، وقد أعطاها العنوان، وما عليَّ سوى أن أقف أمام الباب في الشارع حتى تراني وتتعرَّف على البيت.

ارتديتُ ثيابي، وهيّأتُ حنين، وخرجنا نقف أمام الباب، فجاءت ياسمين وكان ابنها يجلس بجانبها في المقعد الأمامي، فتحتُ الباب الخلفي، ألقيتُ عليها السلام وركبنا.

قبل أن تمضي بالسيّارة، قالت: "أغلق الباب جيّداً أستاذ توفيق".

فتحتُ الباب، وأعدتُ إغلاقه بشيءٍ من العزم. قالت: "تمام، الآن انغلق الباب جيّداً". ومضت تقود وهي تنظر أمامها. نظرتُ إلى شعرها مِن الخلف وهي تمضي، ثم إلى وجهها من خلال المرآة الداخليّة للسيّارة فالتقت نظراتُنا في لمحةٍ سريعة، قالَت: "في هذه الفترة صرتُ أقرأ كثيراً، خاصّةً القصص القصيرة". ثم أردفت تقول بعد قليلٍ: "أعدتُ أيضاً قراءة كل قصصك السابِقة التي نشرتها عندنا في الجريدة".

كنتُ أستمع إليها وأنظر إلى شعرها من الخلف وأحياناً إلى وجهها في المرآة دون أن أتكلَّم حتى وصلنا إلى المزرعة.

أعدَّت فراقد برفقة ياسمين مائدة السهرة لنا، وجلسنا معاً، عندها قال الدكتور عصمت: "صِرتُ أفتقدك يا توفيق، ما رأيكَ أن تترك البيت، وتأتي لتقيم معي في المزرعة، وفراقد سوف تتولّى الاعتناء بحنين؟".

قالَت ياسمين: "فكرة رائعة جدّاً".

وقالت فراقد: "سيضيء البيت بوجودك فيه أكثر يا أستاذ توفيق، سأهتمّ بحنين، وستتفرَّغ للقراء والكِتابة".

كانت بالفعل فكرة رائعة كما قالت ياسمين، ولكنّني لم أقبل، لأنّني توقَّعتُ بأن ذلك سوف يُقيِّد حرّيَّتي ولو بنسبةٍ ما. أطالَت ياسمين السهر في تلك الليلة، وكانت مُستمتعة بالشرب والحديث حتى بلغت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عندها نهضت واستأذنَت بالخروج، وقالَت: "ما دمتَ اعتذرتَ عَن السكَن في المزرعة، بين فترة وأُخرى دعكَ عندنا عدَّة أيّام".

نظرتُ إليها وقلت: "فكرة معقولة".

قالت: "أفهم من كلامك بأنّكَ ستبقى غداً أيضاً عندنا؟".

قلت: "تكرمي".

فخرجتْ سعيدة ومُنتشية لأنَّها كانت شربت كأساً، وملأت الثانية، وشربت منها النصف تاركةً النصف في الكأس.

لبثتُ مع الدكتور عصمت نستكمل السهرة، بعد نحو ربع ساعة على ذلك، تناهَت إلينا نغمات البيانو في عزف موسيقا أغنية (أعزّ الناس) لعبد الحليم. عندها قال الدكتور عصمت: "ياسمين ما تزال بنظري طفلة، لذلك أبقى أتعامل معها كما لو أنَّها طفلة، وهي طيّبة وبريئة، منذ أن كانت صغيرة كنتُ أجلب لها أفضل أساتذة الموسيقى إلى البيت لتدريبها على العزف، كانت تُحبّ البيانو، وهذا البيانو الذي تعزف عليه اشتريته بعد طلاقها وبعد أن تعرَّضَ البيت للحريق (سيّء الذكر)، وكان البيانو السابق من ضمن الأشياء التي احترقَت، فاشترت ياسمين بنفسها هذا البيانو وأتت به كي تعزف عليه عندما تزورنا وتكون لديها رغبة في العزف".

***

استفقتُ في العاشرة والنصف صباحاً، نظرتُ حولي وكنتُ على السرير بجانب حنين في ذات الغُرفة التي اعتدتُ النوم فيها في بيت الدكتور عصمت، مططتُ ذراعَي ونهضت أمشي في الرّدهة، لم أر أحداً، لم أسمع صوتاً، خطر لي بأن (فراقد) تكون الآن برفقة الدكتور عصمت في غرفته كما رأيتهما في المرَّة الماضية، ولا أدري أيُّ وسواسٍ تسرَّب إليَّ وجعلني أصعد إلى الطابق الثاني حيث غُرفته، دنوتُ مِن الباب، وتناهَت إليَّ وشوشةٌ مِن الداخل، عدتُ ووضعتُ عينَي في ثقب الباب، فرأيتهما في نفس الوضعيَّة التي كانا فيها في المرَّة السابقة. عادت إليَّ الإثارة مرَّةً أُخرى وبذات القوَّة وأنا أنظر وأستمع إلى كلماتهما، لم أعد مُتحكِّماً بنفسي والإثارة تشتعل في أنحاء جسدي كالنّار، تخيَّلتُ تَرنيم، لكنّني استبعدتُ الفكرة، تراجعتُ إلى الوراء ونزلت إلى الغُرفة، أيقظتُ حنين من نومها العميق، أخذتها إلى المغسلة، غسلتُ وجهها كي تصحو بشكلٍ جيِّد، واتّجهتُ بِها على الفَور إلى الطريق العام، بعد أن قطعنا نحو نصف الطريق، أحسَّت حنين

بإرهاقٍ وهي تمشي ويدها بيدي، حملتها واستكملتُ المشي حتى وصلنا إلى الطريق العام، أوقفتُ سيّارة كانت قادمة، واتَّجهتُ بِها إلى حيث مبنى الجريدة التي تعمل بِها ياسمين.

ألقيتُ السلام على الموظَّف الذي كان جالِساً في مكتب الاستعلامات، والذي بات يعرفني، ويعرف بأنّني مِن كُتّاب الجريدة، فنهض مُرحِّباً بي، مضيتُ إلى غرفة ياسمين، كانت منهمكة في قراءة بعض الأوراق أمامها وبيدها قلم أحمر. عندما رأتني، حدَّقت بي مستغربةً، وما لبثت أن قالت: "أهلاً وسهلاً أستاذ توفيق.. اتَّفقنا أن تمضي اليوم أيضاً عندنا في المزرعة".

قلت: "نعم كان من المفترض أن أبقى اليوم أيضاً".

قالت: "ما الذي تغيَّر؟!".

قلت: "جئتُ أطلبكِ للزواج".

وضعتْ القلم جانِباً، وقفت على قدمَيها، ابتسمت ابتسامة أظهرت أسناناً بيضاء، أشارت بيدها: "تفضّل أجلس"، وهي ترفع حاجبَيها دَهِشةً.

قلت: "جئتُ خصيصاً لهذا المطلب، وليس كي أجلس، أريد أن أعرف إن كنتِ موافقة، أم لا، وسأنصرف".

رفعت رأس سبابتها إلى أعلى جبهتها، وبعد لحظاتٍ قالت: "موافقة".

هززتُ رأسي وخرجت.

***

عدتُ إلى البيت شابكاً يد حنين بيدي، أحسستُ بإشراقة الإقبال على حياةٍ جديدة، ياسمين شبيهة بإلهام، هي أيضاً متخصّصة في اللغة العربية وتقرأ الأدب، لكنّها لا تكتب، تقول بأنّها لا تمتلك موهبة الكِتابة. وهو الكلام ذاته الذي قاله لي أبوها. قال: "تخطر لي أفكارٌ، فأجلس كي أكتبها.. لكن يمضي بي الوقت دون أن أستطيع كتابة جملة واحدة، ولا أجد الأنس أو الاندفاع للكتابة، ما تفسيركَ لذلك؟".

قلت: "هُناك الكثير مِن العوامل تجتمع مع بعضها لتتشكَّل منها الموهبة، ما قلته من الأنس والاندفاع، قد يكونان من تلك العوامل".

قال: "أشعر بأنّ لديّ شحنة أريد أن أفرغها على الورق، لكن لا أعثر على الثقب الذي من خلاله أفرغ تلك الشحنة".

قلت: "العمليَّة مُتداخِلة وليست سهلة، وأيضاً قد تخصّ الجينات الوراثيّة.. قلتُ لك سابِقاً بأن أمّي قاصّة رغم أنّها أمّية، وتقول بأن أمّها أيضاً كانت تقصّ لها القصص، لكن من بين أخوتي وأخواتي، يبدو بأن تلك الجينات أصابتني، أقصد أصابت مخيّلتي.. تماماً مثل فيروسات الأمراض الوراثية التي لا تصيب جميع الأبناء، ولكنّها قد تصيب واحداً منهم. ذات مرَّة سألتُ أمّي إن كانت القصص التي ترويها لي قد رُويَت كلّها لها؟ قالت بأن بعض القصص هي من بنات أفكارِها، وهي التي تحبكها وترويها لي. أذكر منذ الطفولة، كان رفاقي في الحارة يتحدّثون وكانت مخيّلتي تحلّق بي بعيداً عنهم،

سواء كنا نجلس أو نمشي معاً في زقاقٍ ما". يومها قال: "لو خُيّرتُ بين أن أتحوَّل الآن إلى شخصيّتك، وتتحوَّل أنت إلى شخصيَّتي، لوافقتُ على الفور دون لحظة تردّد".

تخيَّلتُ نفسي مكانه أنعم بكل ذاك الرفاه من العَيش، ولكن نظير ذلك تخيَّلتُ بأنّني لا أكون كاتباً، فقلت له: "لكن من المُفترض أن يكون لي رأيٌّ في الأمر، لأنّه يخص هذا التحوّل الكبير في حياتي".

قال: "ما هو رأيك؟".

قلت: "لن أوافق".

ياسمين أيضاً مثل إلهام تحبّ قراءة الشعر، ولكنّها تُفضّل (نزار قبّاني)، تقول بأنّه استطاع أن ينقذها من بعض التعقيدات التي كانت مُترسّخة لديها. كانت قصائده مثل الضوء الذي بدّد الظلمات التي كانت كامنة في أعماقها.. تعتقد بأن أغنيَتَي (رسالة من تحت الماء)، و(قارئة الفنجان)، مِن أفضل ما غنّى (عبد الحليم)، وأن أغنية (متى ستعرف)، مِن أفضل ما غنَّت نجاة. يومها

قالت ذلك، ثم غدت تُدندن: (متى ستعرف كم أهواك يا أملاً، أبيع من أجله الدنيا وما فيها، لو تطلب البحر في عينيك أسكبه، أو تطلب الشمس في كفيك أرميها، أنا أحبك فوق الغيم أكتبها وللعصافير والاشجار أحكيها، أنا أحبك فوق الماء أنقشها وللعناقيد والأقداح أسقيها). وبعد قليلٍ قالَت: "بكل تأكيد لأبي الفضل الأوّل والأكبر في تنمية شخصيَّتي وتشكيل وعيي، لكن إلى جانب ذلك كان دور الأدب والفن فعّالاً، وهذا أيضاً يعود إلى أبي الذي رسَّخ لديّ حب القراءة والموسيقى.. أنا سعيدة ومحظوظة بالفعل لأنّني ابنة هذا الرجل الكبير في كل شيء.

جلستُ على الإسفنجة وراحت حنين تعبث ببعض ألعابها المرمية على الأرض، تخيّلتها إلهام وقد عادت طفلة، قلتُ في قرارة نفسي وأنا أنظر إليها: "هل يُعقل أنّها إلهام وقد عادت صغيرة، ومن ثم ستكبر.. كل ملامحها هي ملامح إلهام، حتى حجمها الصغير، وطولها، ولون شعرها، ونظرات عينَيها، ومشيتها، ونبرات

صوتها..". وفجأة قلت: "إلهام..!". نظرتْ حنين إليَّ وقالت: "هل ناديتني يا باما؟". أجفَلَني سؤالُها وقلت: "لا يا بنَتي". فعادت تعبث بألعابها.

عند ذاك، شردتُ بياسمين: "تُرى هل تسرَّعتُ في طلَبها للزواج؟ هل كان ذلك نتيجة ردّ فعل نجم عَن الإثارة الجنسية التي وجدتُ نفسي فيها؟ لكن يوجد ما يُحرّك مشاعري نحوها، مشاعر أن تكون زوجة لي، وأن أكون زوجاً لها، أن تنجب لي أطفالاً، أن أُعيد معها بناء بيتي الزوجي".

تعالى رنين جرس الباب بشكل مُتسارع، نهضتُ إلى الباب ولحقتني حنين والرَّنين ما يزال يتوالى دون انقطاع.

نظرتُ في العين الساحرة، رأيتُ وجه الدكتور عصمت، فتحتُ الباب بسرعةٍ، فدخل على عجل قائِلاً: "لماذا تركتَ البيت دون أن تُخبرني؟ ألا تعرف بأنّني أمرّ بظروفٍ قَلِقة؟".

قلت: "ما أردتُ أن أُزعجك بتوصيلي إلى البيت، وأحببتُ أن أمشي".

قال: "أردتُ أن أهاتفك، لكنّني فوجئتُ بأنّ هاتفي مفصول، وهذه أوّل مرّة ينفصل فيها الهاتف عن بيتي، ذهبتُ إلى مدير مؤسسة الهاتف، فأرسل معي موظَّفاً، وبعد إجراء الفحوصات، نظر الموظَّف إليّ وقال: "السلك مقطوعٌ يا دكتور، يبدو أن هناكَ يداً قامت بقطعه بالمِقَصّ!".

قلت: "ما الحل؟".

قال: "لا أنصح بإعادة ربطه لأن ذلك سيُصدر خشخشة عند استخدام الهاتف خاصّة عندما يشتدّ هطول المطر، أو عندما تهبّ الرّياح، من الأفضل أن نُغيّر السلك كله.. اليوم تأخَّر الوقت، غداً سأجلب ورشة ونمدّد السلك الجديد".

- "أعدته منذ قليلٍ إلى دائرته، وجئتُ على الفور لأطمئن عليك وعلى ابنتك".

قال ذلك واتّجه إلى المطبخ، فتح البرّاد، أخرج زجاجة ماء، جرع نصفها وقال: "كم هو لذيذٌ الماء البارد". ثم نادى حنين، أخرجَ من جيبه علبة بسكوت، أعطاها

العلبة وقبّلها، ثم جلس على الكرسي، وقال: "أريد كأساً من الشاي حتى نتحدث بتأنٍّ في موضوعٍ آخر".

أعددتُ الشاي وجلستُ بجانبه كتفاً إلى كتف، وانزوت حنين في زاوية تتلمّظ البسكوت في فمها وتتفرَّج على مسلسل الأطفال (روبن هود) من التلفزيون الذي اشتريته من سوق (السنجقدار)[19]، سحب رشفةً من الشاي، ثم تبعها برشفةٍ أخرى وقال: "فراقد حامل..".

قلت: "على مهلك يا رجل، هكذا دفعة واحدة بدون تمهيد للكلام!".

أشعل سيجارة، عبَّ منها نفساً عميقاً، نفث الدخان بكثافةٍ وقال: "أخي أنا هكذا.. في بعض المواقف تكون بَصَلَتي محروقة".

نظرتُ إليه بعينَين جاحظتَين.. عبَّ نَفَساً آخَرَ مِن السيجارة وأردف يقول: "إنه ابني الذي في بطنها، وسأحافِظ عليه، أشياءٌ غريبة تحدث في الحياة لم نكن

---

[19] سوق في دمشق يكثر فيه بيع الأدوات الكهربائية.

نحسب لها حساباً، ولم تكن تخطر لنا على بال قط.. أحياناً أرى بأن الحياة ما هي إلّا عبارة عَن مجموعة أحداث غير متوقَّعة يعيشها الإنسان، وتنتهي به أيضاً في لحظةٍ غير متوقَّعة، ولا يملك من أمره شيئاً سوى أن يعيش في دوّامات اللاتوقّع". رشف ما تبقَى في كأس الشاي برشفةٍ وقال وأنا أنظر إليه: "عندما أخَبَرَتني بذلك قلت لها: سأتزوَّجكِ يا فراقد".

قالت: "إن كنتَ ستتزوَّجني لتستر عليّ، سأسقط الجنين وكأن شيئاً لم يكن".

قلت: "لا يا فراقد، سأتزوَّجكِ لأنّني لم أعد قادِراً على الاستغناء عنك، لقد اعتدتُ عليكِ وأحببتكِ".

قالت: "أنا أيضاً أحببتك، لذلك أعطيتكَ كل شيء أردته منّي دون حدود".

بعد قليلٍ وضع يده على كتفي وقال: "فراقد وقفتْ إلى جانبي في أسوأ مرحلة من حياتي وأكثرها قلقاً واضطراباً، كانت تُخاطر بنفسِها حتى لا تتركني، لم يسبق لها أن نامت وأنا يقظ، تسهر حتى تطمئن بأنّني نمت ثم تذهب

إلى غرفتها وتنام.. كنتُ أحياناً أراها طبيبة نفسية لي، كنتُ أنظر إلى وجهها، فأشعر براحة نفسيّة هائلة، فراقد يا توفيق هي كتلة من النقاء، وكتلة مِن الإخلاص".

قلت: "على كل حال، هذا بالنسبة لي خبر سار فعلاً.. ألف مبارك يا صديقي لكَ ولها".

قال: "خلال اليومَين القادمين سأطلبها رسمياً من أخيها، وأقوم بتوثيق زواجنا في المحكمة الشرعية، ثم نذهب إلى (طرطوس)[20]، لي صديقٌ طبيب لديه شاليه على البحر، سنمضي شهراً هُناك".

---

[20] مدينة ساحلية سورية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط في سورية، وتُعدّ ثاني أكبر مدينة ساحليّة بعد (اللاذقية) في سورية، ويعود تاريخُها إلى الألفية الثالثة قبل الميلاد، حيث تم تأسيسها كمستعمرة فينيقيّة.

الفصل العاشر

اتَّصلَتْ بي ترنيم وقالت بأنَّها تُريد أن تَزورني، فاعتذَرت لأنّني نزعتُ مِن نفسي فكرة الزواج بِها، وبلغتُ إلى قناعةٍ بأنّنا حتى لو تزوَّجنا، سيكون زواجُنا فاشِلاً، خلال سنةٍ كاملة من علاقتنا معاً كنتُ أحاول أن أقنع نفسي بفكرة الزواج منها، ولكنّني لم أنجح، وكنتُ دوماً أمنح لنفسي فرصةً ولا أتَّخذ القرار النهائي منها حتى انتهيتُ إلى هذه الحقيقة.

تناهت طرقاتٌ على الباب، فعرفتُ بأنّها طرقاتها، لأنّني حفظتها من سائر الطرقات، فهي تطرق بإصبعَيها على الباب بإيقاعٍ سريع كما لو أنَّها تعزف على (دربكّة)، ولذلك لم أنهض كي أنظر إلى الطارق في العين الساحرة. وعندما جرت حنين كي تفتح الباب، منعتها من ذلك، كان الوقتُ عصراً وكنتُ قد تناولتُ الغداء منذ قليلٍ، كان في برنامجي أن أرتاح في قيلولةٍ لمدَّة ساعة، وأخرج إلى مقهى

(الرَّوضة)[21]، أمكث فيه حتى الثامنة مساءً، ثم أنطلق إلى المزرعة وفق موعدي مع ياسمين وأقضي الليلة هُناك.

بعد أن توقَّف الطرق بنحو ربع ساعةٍ، خرجتُ من البيت متَّجهاً إلى المقهى، رأيتُ صديقَين يجلسان إلى مائدةٍ، أحدهما شاعر، والآخَر صحفي، تقدَّمتُ وألقيتُ السلام عليهما، فنهضا وردَّا السلام عليَّ ودعواني للجلوس، قال الشاعر وبدا بأنّه يُكمل حديثاً للصحفي: "هؤلاء لا يؤتَمَنون.. ديدنهم الغدر.. لا أخاف على مستقبل بلادنا من شيءٍ بقدر ما أخاف من هؤلاء".

قلت: "ماذا حدث؟".

قال الصحفي: "اليوم قتلوا رئيس الجزائر (محمد بوضياف) على الهواء وهو يلقي كلمة".

قلت: "مَن..؟ وكيف؟!".

قال الشاعر: "حارسه!".

---

[21] مقهى دمشقي قديم على نمط البيوت الدمشقيّة القديمة، تتوسّطه بحرة شاميّة، تأسس عام 1937، يقع في شارع العابد، يلتقي فيه الأدباء والفنانون.

تلقيتُ الخبر كما لو أنّه صاعِقة لأنّ المؤتَمَن هو الذي خان، مهما كانت الدوافع، فالرئيس هو الذي وضع في يده السلاح حتي يحميه من ضربة غدرٍ قد يتعرَّض لها، ولم يكن يعرف بأن هذا المؤتَمَن هو ذاتُه سيستخدم هذا السلاح كي يوجّه إليه رصاصة الغدر في الظَّهر، ذكَّرَني ذلك بما حدث مع (السادات) أيضاً على البث، فهو الذي وضع السلاح بِيَد الذي سوف يستخدمه ليوجّه إليه رصاصة الغدر، ذكَّرَني هذا أيضاً بزوجةٍ، أكرمها الرجل وتزوَجها، وفتح لها بيتاً، وصار يشقى ليلاً نهاراً حتى يوفّر لها طلباتها، ثم تعرَّفَت على شخصٍ آخَرٍ، وبينما كان الزوج نائماً مستكيناً في بيته الآمن، وقد أقفل الأبواب جيّداً حرصاً على عدم دخول أحدٍ في الليل، فقامت الزوجة خلسةً، فتحت الباب لعشيقها وأدخلته، ثم حملت مطرقةً وانهالت بها على رأس زوجها حتى أردته قتيلاً وهو نائمٌ في فراشه، وأخرجته برفقة عشيقها وقذفا به في أطراف المدينة. أمسكتُ بيد ابنَتي ونهضتُ مكتئباً واتجهتُ إلى المزرعة، لو لم أكن على موعدٍ مع ياسمين،

لَما ذهبت، كانت لدي رغبة للذهاب إلى البيت لأجلس بمفردي، لا أحد يتحدَّث معي، ولا أتحدَّث مع أحد، لا شيء يغيظني بقدر الغدر، ولذلك لا أستطيع أن أغفر حتى للدكتور عصمت غدره بحقّ غيداء، على الرغم من أنّه طوال الوقت يُحاول أن يُبرّر لي موقفه، لأنَّها لم تكن تتركه بحاله، وهي التي بدأت بالغدر عندما أغوته واستدرجته إليها، ثم أرادت أن تسلبه ماله، وسمعته، وتاريخه المهَني، وعائلته، لكنّني بقيتُ متمسِّكاً بموقفي وهو أن الجريمة لا تُبرَّر، ودوماً هُناك مجالٌ سلميٌّ للحلول حتى في أكثر الخلافات تعقيداً.

وصلتُ إلى المزرعة بسيّارة أجرة في الموعد، خرجت ياسمين موردة الوجه عند سماع صوت محرّك السيّارة، كانت ترتدي فستاناً بنفسجيّ اللّون من قماش (الأورجانزال)، صافحتني بابتسامة مشعّة وعيناها تلمعان فَرَحاً، انحنَت إلى حنين وقبَّلَتها قبلتَين مِن خدَّيها، ثم أمسكت بيدِها ومضينا إلى الداخل، جلسنا في مكتب الدكتور عصمت.

- "كيفك يا حلوة..". قالتها ياسمين.
- "مليحة". أجابت حنين بنبراتها القريبة جدّاً من نبرات صوت إلهام.

وبعد قليلٍ خرجت برفقة شادي إلى حيث البيانو، قالت ياسمين: "أعانك الله في تربيتها يا أستاذ توفيق، أنتَ الآن بمثابة الأب والأم لها في وقتٍ واحد".

قلت: "الآن الأمر أخفّ عليَّ من السنة الماضية، أصبحتْ تتكلَّم بشكل لا بأس به، وتفهم ما أقول، ولم أعد أستخدم لها الحفّاضات، وتذهب من تلقاء نفسها إلى المرحاض، وصارت تمشي معي لمسافات أطوَل دون أن تتعب بسرعة، وأحياناً أتركها في البيت لأوقاتٍ قصيرة، وأتَّصل بها في الهاتف كي أطمئن عليها حين يُتاح لي هاتف. ومن جهةٍ أُخرى لا تجعلني أشعر بالوحدة".

أمضيتُ الليلة هناك برفقة ياسمين، لم ننم حتى الخامسة صباحاً، كنا نتحدَّث ونُخطّط للزواج، وكانت فرصة جيّدة كي أتعرَّف عليها أكثر، وتتعرَّف عليَّ أكثر، كنتُ أشعر معها بطمأنينة نفسيّة، أشعر وأنا أنظر إليها

براحةٍ تماماً كما كانت إلهام بالنسبة لي. تعرَّفتُ على فتياتٍ كثيرات ربما نحو عشر فتيات خلال هذه السنوات، كنتُ أرتعب من فتاةٍ لا أشعر بطمأنينةٍ معها، بعض الملامح في النساء، وفي الرجال على العموم تُرعبني ولا أعتقد بانّني سأستطيع أن أنسجم مع أصحابِها، ولذلك أحسم الموقف مهما كان، وأمشي، لكن ترنيم لم تكن من ذاك الصنف، بل مُريحة إلى أقصى حدّ، ورائعة إلى أقصى حدّ، وأعتقد بأنّها ستكون زوجة ممتازة، ولكن لم أستطع أن أقنع نفسي بفكرة الزواج منها لأسبابٍ تبدو لي غامضة ولا أعلمها، فقط هي مشاعر داخلية تختلجني.

عدتُ في صبيحة اليوم التالي من المزرعة إلى البيت دون أن أذهب إلى أيّ مكانٍ آخَر، فوجئتُ بترنيم واقفة أمام الباب، وعندما رأتني فوجئتْ هي الأُخرى، وقفنا نتبادل النظرات، كان وجهها ذابِلاً وشاحباً في آن، بلعت ريقها بصعوبةٍ وقالت وعيناها تخرقان عينَي: "لماذا تتهرَّب منّي..؟! هل بدر منّي شيءٌ أزعجك؟".

طبطبتُ على كتفها وفتحتُ الباب، قبَّلتْ حنين، ثم حَمَلَتها على ذراعَيها، ومضينا إلى الداخل. قلتُ لها: "يبدو بأن زواجنا سيكون صعباً ولا أريد أن أتسبَّب لك بزواجٍ فاشلٍ قد يترك أثراً سلبيّاً على مستقبلك، هذه هي مشاعري التي حاولتُ طوال الفترة الماضية أن أتهرَّب منها، ولكن لم أستطع، ولذلك سوف أتزوَّج".

نظرتْ إليَّ بعينَين جامدَتَين وقالَت: "لا أستطيع أن أمنعك من الزواج، وحتى لو استطعت، لن أفعل، تربيتي البهائية تمنعني من ذلك، هذه حرّيتك، ولكن أقول لك بأنّك إذا تزوَّجت، سوف أنتحر لأنّني لا أتخيّلك مع امرأةٍ أُخرى غيري، ولا أتخيَّل امرأة أُخرى معك، كما قلتَ لي مشاعرك، فأنا أيضاً قلت لك مشاعري، وهذا كل شيء". قالت لي ذلك وخرجت.

***

كان مِن المُقرَّر أن يمكث الدكتور عصمت مع عروسته فراقد شهراً في (طرطوس) لكنَنا فوجِئنا بهما يعودان ذات ليلةٍ بعد عشرة أيَامٍ فقط، كانت الساعة تُشارف على

الواحدة والنصف ليلاً عندما جاءا فجأةً إلى المزرعة، وكنتُ جالِساً مع ياسمين نتسامر، كان معهما شخصٌ آخَر لم يسبق لي أن رأيته، لم يكن الأمر طبيعيّاً، كانت فراقد ترتدي فستاناً ليلكياً، وحول رقبتها طوقٌ من اللؤلؤ، تبدو مُحتقنة وقد انتفخَت عيناها من البُكاء، وكان الدكتور عصمت يرتدي بدلة كحليّة دون ربطة عنق، ويبدو مُنهاراً، وقسمات وجهه مُقطَّبة.

عند ذاك قالت ياسمين بصوتٍ مذعور: "ماذا حصل يا فراقد..؟!".

أمسكت فراقد بيدِها ونزلت بِها إلى الطابق السفلي، قلتُ للرجل الذي كان أنفه يشبه منقار طائر صغير: "بلا مؤاخذة.. مَن أنت؟".

قال: "أنا سائق تكسي من أهالي طرطوس، طلبتْ منّي تلك السيّدة التي نزلت الآن، أن أسوق سيّارتهما من طرطوس إلى دمشق لقاء أجر، لأن زوجها مريض ولا يستطيع أن يسوق، فتركتُ سيّارتي في البيت وجلبتهما

إلى هنا.. ولكن الوقت متأخِّرٌ، سأضطر أن أبيتَ الليلة هُنا، وغداً صباحاً سأعود إلى بيتي".

بعد قليلٍ جاءت فراقد برفقة ياسمين، أخذتا الدكتور عصمت إلى غرفته، فأخذتُ السائق إلى الغرفة التي سبق لي أن رأيت منهل نائِماً فيها، واتَّجهتُ إلى غرفتي.

أطفأتُ المصباح، وأشعلتُ النواسة ذات الضوء البنفسجي، واستلقيتُ إلى جانب حنين التي كانت مُستغرقة في لفائف نومٍ عميق، لبثتُ مُستيقظاً، وبعد نحو ساعةٍ، انفتح الباب ودخلت ياسمين قائلة: "هل أنت نائم يا توفيق؟".

نهضت وجلستُ في السرير وقلت: "لا.. أنا يقظ؟".

أشعلتْ المصباح وجلست على حافة السرير بوجهٍ جهم، قلت: "ماهي الأخبار..؟ لم أفهم شيئاً بعد!".

قالت: "رغم أنّني أيضاً لم أفهم شيئاً بعد، لكن يمكنني القول بأن الأخبار غير مطمئنّة". ثم تابعت تقول بعد صمتٍ لم يطل بِها: "حكت لي فراقد كلاماً لم أستوعب شيئاً منه".

قلت: "أنا كذلك، حكى لي السائق كلاماً ولم أفهم شيئاً منه".

في تلك اللحظات أدركت مدى حاجتي إلى ياسمين، وربما مدى حاجتها أيضاً إليّ مِن خلال نظراتها، عندما تعرَّفتُ بإلهام ظننتُ بأنّني لن أرى أنقى منها، لن أرى مَن تتمتَّع بكل تلك النزعات الإنسانيّة المُتقدّمة مثلها، وما تزال حاضرة في كل شيءٍ أفعله، حاضرة في ابنتنا (حنين). حتى ترنيم كنتُ أتخيَّل صورة إلهام فيها، كانت رائعة وتصلح بأن تكون زوجة مثاليّة، لكنّني رغم كل مُحاولتي، لبثتُ مُتردّداً من فكرة الارتباط بِها، وما أردتُ أن أتسبّب لها في زواجٍ بدا لي منذ البداية بأنّه سينتهي إلى الفشل، ولذلك ما أردتُ أن أستمرّ معها على أساس تحقيق مآربي الجنسيّة منها، وبذات الوقت هي مُستمرّة معي على أساس الزواج.

تحرَّكت حنين، نظرنا إليها معاً، وبعد قليلٍ انقلبت إلى جنبها الآخَر وأكملتْ النوم، مددتُ يدي إلى ظاهر يد ياسمين، ضغطتُ عليها، ثم رفعتُ يدي الأُخرى، داعبتُ

شعرها، مررتُ أصابعي على مساحة الوجه، وضعتُ الشعر المُتناثر على وجهها خلف الأذنَين، ضممتُها إلى صدري، فاستلقت بجانبي على السرير المعدني الذي بالكاد اتَّسع لنا نحن الثلاثة، وغدا إطاره يرتجّ ويُصدر صليلاً.

لم نكن نشعر بمرور الوقت حتى تناهى سعال من الخارج، أدركتُ بأنّه سعال السائق، عقبه صوت فراقد: "انتظر كي تتناول الإفطار، ثم اذهب".

تناهى صوتُه: "أريد أن أخرج مبكّراً حتى أصل إلى البيت مبكّراً، طريقي طويل، ولديّ عمل".

تناهى صوتُها: "مستحيل أن أدعك تخرج من بيتي بدون أن تتناول الطعام، -عفواً قلت لي ما اسمك؟-

تناهى صوتُه: "اسمي (موفّق) يا مدام".

تناهى صوتُها: "حتى العشاء لم تتناوله، والحقيقة بعد أن نام زوجي، جئتُ إلى غرفتك من أجل أن تتناول العشاء ولكنك كنتَ مُستغرقاً في النوم، ناديتك مرَّتَين ولكنك لم تستفق، فتركتك في نومك".

نهضنا من السرير وخرجنا وكان الرَّجل واقِفاً في البهو، فقلت له: "تناول الطعام، ثم اذهب إلى بيتك، لا ينبغي أن تخرج من البيت جائعاً".

فهزَّ رأسه وقال: "لابأس".

دخلتْ ياسمين برفقة فراقد إلى المطبخ لإعداد الطعام، وأخذتُ السائق إلى صالة الجلوس، انتبهتُ تواً إلى أصابع يدَيه الطويلة بشكلٍ مُلفت ولم يسبق لي أن رأيتُ أصابعاً بهذا الطول، لبثنا جالسين دون أن يتحدَّث أحدنا إلى الآخَر، حتى جاءت فراقد حاملة الطعام، صببتُ كأسَين من الشاي، وتناولنا معاً الطعام، وعندما انتهى، جاءت فراقد وأعطته أجره، فأخذه السائق وانصرف. قالت فراقد بعد أن ودَّعَته إلى الباب وعادت: "ناس في منتهى البساطة والطيب، كم ارتحتُ لهم خلال عشرة أيامٍ أمضيناها بينهم".

***

صعدتُ إلى غرفة الدكتور عصمت، كان يقظاً ومستلقياً على ظهره على السرير ينظر إلى السقف وقد

بدا على وجهه المُنقبض بأنّه مسكونٌ بكآبةٍ عميقة. لم يتحرَّك بدخولي، كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهراً، جلستُ على كرسيٍّ وأنا أنظر إليه وسط صمتٍ رانَ على الغرفة. وبعد زهاء ربع ساعةٍ مِن جلوسي، كسرتُ الصمت وقلت: "أريد أن أطمئنّ عليك قبل أن أعود إلى البيت".

- "ابق هُنا، أنا بحاجةٍ إليك". قالها وهو ما يزال ينظر إلى السقف.

تركتُ الكرسي وجلستُ على السرير بالقُرب من رأسه وقلت: "ماذا حصل..؟ لماذا رجعتما بسرعة..؟ وأنتَ الذي كنت تقود السيارة بلياقة لماذا لم تعد قادراً على قيادة سيارتك..؟ ثم: لماذا..؟ ولماذا..؟ ولماذا..؟ أريد أن أعرف، يهمّني أن أعرف.. في البداية ظننتُ بأن خلافاً نشب بينك وبين فراقد، ولكن تبيَّن لي بأن لا شيء من ذاك القبيل قد حدث بينكما".

- "يبدو بأن تلك (العاهرة) لا تدعني أهنأ بحياتي، تحوَّلَت إلى لعنةٍ كي تفسد لي حياتي، حوَّلَتني إلى قاتلٍ ولم

أتخلَّص منها بعد، أمضينا على البحر أسبوعاً جميلاً، وأنتَ تعلم كم أحب فراقد، وبعد الزواج صرتُ أحبّها أكثر من أي وقتٍ مضى، فراقد هي حياتي كلّها، كل ساعة من ذاك الأسبوع الذهَبي كانت أجمل من الأُخرى..".

قال ذلك وهو ما يزال ينظر إلى السقف، وبعد قليلٍ ندت عنه تنهيدة واستأنف يقول بصوته الذي يشوبه إرهاقٌ عميق: "في اليوم الثامن خرجتُ من الشاليه صباحاً كي أسبح كعادتي كل صباح وتركتُ فراقد نائمة، على أن أعود ونتناول الإفطار معاً، أمضيتُ نحو نصف ساعة في السباحة، وعندما عدتُ رأيتُ فراقد يقظة ومذعورة! قذفتْ نفسها في حضني وقالَت: "نفس الفتاة التي جاءتني في المرّة الماضية في المزرعة، أيقظتني قبل قليلٍ مِن النوم، كان وجهها شاحِباً ومُخيفاً، قالَت لي بصوتٍ أجشّ: "كيف تتزوَّجين قاتِلاً قتل امرأتَين؟!.. الذي يقتل امرأتَين، يمكن أن يقتل الثالثة".

قلت: "قَتَلَ مَن..؟!".

قالت: "اسأليه وهو سيجيبك على هذا السؤال". ولا أعرف كيف خرجت وصفقت الباب خلفها.

عند ذاك فقدتُ توازني وأخذ دمي يفور في عروقي وصرختُ بأعلى صوتي: "أين أنتِ يا جَبَانة..؟! اظهري لي وجهاً لوجه". ثم جلستُ لأنّني لم أعد قادراً على الوقوف، أمضينا بعد ذلك يومَين بالكاد وأنا أحاول أن أهدّئ نفسي، لكن وضعي كان يزداد سوءاً، ولم أكن قادراً على السياقة، فاتفقنا مع ذاك السائق أن يسوق سيارتي ويأتي بنا إلى البيت". قال ذلك ولبث صامتاً دون أن يتحرك، ثم ما لبث أن أغمض عينَيه. قلتُ بخفوتٍ: "أستاذ عصمت..". ولم يجب، فأدركتُ بأنّه نام تهرّباً مِن التفكير الذي نَقَلَه إليّ، أجل نَقَلَه إليّ، فلم يعد بوسعي أن أنسى ما سمعت، فأنا أعلم بأنّه قَتَل غيداء وحدها، أمّا المرأة الثانية فَمَن هي؟! تذكَّرتُ ما قاله لي سابِقاً عن موت زوجته أم ياسمين في ظروفٍ غامضة، ولكن التبَسَت عليّ الأمور. لبثتُ جالِساً وبعد نحو نصف ساعة من جلوسي، دَخَلَت ياسمين، هزَّت رأسها مُستفسرةً؟

فقلت بخفوتٍ: "لا جديد". ثم جاءت فراقد وصارت تنظر إليه وهو مغمَض العينَين ويتنفس من فمه، لبثنا قليلاً ثم خرجنا معاً. قالت ياسمين بأنّها اتَّصلَت مع رئيس التحرير في الجريدة وأخذت إجازة لمدّة يومَين، ثم قالت ونحن نهبط الدرج إلى الأسفَل: "هل ستبقى اليوم هُنا؟".

قلت: "نعم، كنتُ عازِماً على الرجوع لكنه طَلَب منّي البقاء".

***

كنتُ أقوم برفقة ياسمين باستعدادات الزواج بعد أن طلبتها للزواج رسميّاً مِن أبيها، وأبدى موافقته، وكانت الفكرة أن أترك البيت الذي أُقيم فيه بالأجرة وأقيم في البيت الذي تملكه ياسمين في حي (أبو رمانة)[22]، ونحن في ذروة الاستعدادات زارني الدكتور عصمت ذات مساءٍ إلى البيت وبدا مُتعباً مِن جديد بعد أن كان قد استردَّ

---

[22] من الأحياء السكنية الراقية في دمشق، ويُعرَ ف بحي الرؤساء، والسفارات، والأثرياء، يتضمَّن العديد من السفارات، ومن الرؤساء الذين أقاموا فيه: حسني الزعيم، وهاشم الأتاسي، وفوزي سلو.

هدوءه، جلس على كرسيٍّ وقال: "حاولتُ كثيراً أن أنسى مسألة المرأة الثانية التي قالت غيداء بأنّني قتلتها، ولكنّني لم أستطع، وعادت صورة زوجتي تهيمن على مُخيّلتي، وعدتُ أشرد في ظروف موتها المُفاجئ، تذكَّرتُ بأن أختها (جوري) كانت في زيارتها في ذاك اليوم، فذهبتُ إليها في البيت، وطلبتُ منها أن تتحدَّث لي عمّا جرى بينها وبين أختها (ماسة)، وكانت آخر مَن رآها قبل موتها.

فنظرت إليَّ وقالت: "بصراحة يا أبا ياسمين كانت (ماسة) منفعلة جداً في اليومَين الأخيرَين مِن حياتِها، اتَّصلَتْ بي في صبيحة يوم موتها وطلبتْ منَي أن أزورها لأمرٍ هامٍّ جدّاً، فذهبتُ إليها، كانت مُنهارة وهي تقول لي بأن مَمَرّضتك السابقة (غيداء) زارتها للمرّة الثانية يوم أمس وأخبرتها بأنّها على موعدٍ معك في ذاك اليوم بعد الانتهاء من الدوام الصباحي في عيادتك، وأنّك سوف تتزوَّجها، فطرَدَتها ماسة مثلما طردتها في المرَّة الأولى، وبعد خروجها من البيت، أرادت أن تتأكّد إن كانت المُمَرِّضة صادقة في كلامها، أم لا، وبالفعل ذهبتْ ماسة

إلى الشارع الذي فيه عيادتك، وانزَوَت متخفّيةً في ركنٍ تُراقب باب العيادة حتى رأت بأم عينَيها غيداء تدخل إلى العيادة، وأطالت البقاء، فانهارَت المسكينة ولم تشأ أن تتسرّع بالتصرّف حرصاً على ياسمين لأن أمراً كهذا يمكن له أن يترك أثراً سلبيّاً عليها. قالت لي: "رجعتُ مطأطأةً رأسي إلى الأسفل كأنّي راجعة إلى الجحيم وليس إلى بيتي". وعندما رجعتَ مساءً مِن العيادة وكنتَ قد قلتَ لها بأنّك ستتناول الغداء مع صديقٍ لك، آثرتْ أن تخفي مشاعرها حتى لا تصطدم معك.. بقيتُ معها حتى الثانية عشرة والنصف ظهراً واضطررت للعودة إلى بيتي لتحضير الغداء، وأوصيتها أن تصبر حتى تتبيَّن الأمور أكثر، وبعد ذلك وقع الذي وقع وقضت بأزمةٍ قلبيّة وهي في المطبخ تعدّ الغداء لك".

امتلأت عيناه بالدموع وقال: "أحياناً يبدو لي بأن غيداء خُلِقت فقط لتُدمّر لي حياتي.. هُناك أشخاص كما لو أنَّهم تسلَّطوا عليك، وتفرَّغوا لك وكأن لا شيء في حياتهم سوى إلحاق الأذى تلو الأذى بك". قال ذلك ونهض

وكأنه يحمل معه بؤس العالَم كلّه، حاولتُ كثيراً أن أبقيه حتى يرتاح، ولكنّه أصرّ على الذهاب.

جلستُ أشرد بِما قاله، تذكَّرتُ ما قالته لي ترنيم بأنّها لن تحتمل البقاء يوماً واحِداً إذا تزوَّجتُ غيرها، وأنَّها سوف تنتحر في نفس اليوم. تخيَّلتُ بأنّني إذا تزوَّجت، سوف تُنفّذ ما قالَته، وإضافةً إلى تسبّبي في جريمة قتل، لا أدري التداعيات التي يمكن لها أن تنجم عَن ذلك، حسمتُ الأمر بسرعةٍ وقلت: "لم يعد لي خبزٌ في هذه الأراضي". وتوصَّلتُ إلى فكرة ترك كل شيء والسفر برفقة ابنتي إلى لبنان، ومِن هناك أبذل كل ما بجهدي كي أهاجر إلى السويد.

***

كنتُ مُسترسلاً في الشرود وأنا مغمَض العينَين، فربتت حنين على كتفي وقالت: "بابا وصلنا..". فتحتُ عينَي، نظرتُ إليها، إلى الركّاب الذين استعدّوا للنزول، قالَت: "يبدو بأنك كنتَ متعباً يا أبي، منذ أن صعدنا الطائِرة

وجلستَ على الكرسي، وأنتَ نائم، حتى الوجبة التي قدَمتها المضيفة، لم تتناولها".

هبطنا درج الطائرة، استنشقتُ نَفَساً عميقاً لأوَّل مرَّةٍ منذ ثمانٍ وعشرين سنة من هواء دمشق.

الفهرس

الفصل الأول 5
الفصل الثاني 58
الفصل الثالث 72
الفصل الرابع 107
الفصل الخامس 141
الفصل السادس 158
الفصل السابع 174
الفصل الثامن 194
الفصل التاسع 232
الفصل العاشر 247
الفهرس 267